دلالة الأَنساق اللغوية في سورة الفاتحة

م.د.أشواق محمد إسماعيل*

تأريخ التقديم: ٢٠٠٩/٨/٢٧ تأريخ القبول: ٢٠٠٩/٩/٣٠

المقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمـد وعلـى آلـه وصحبه ومن سنّ بسنته وسار على هديه إلى يوم الدين ، وبعد:

فمما لا شك فيه أنّ اللغة نظام تنتظمها نواميس خفية تعود إلـى اسـتعمال مجموعة من الأنساق وهي جزء من النظام الذي تسير وفقـه ،وهـذه الأنـساق اللغوية هي التي تنتظم الوحدات اللغوية من خلال قوانين ومعايير محددة، وللغـة نظام شديد التماسك يشدّ بعضه بعضا بحيث لا ينفصم مستوى لغوي عن مستوى آخر، لأنّ طبيعة التنسيق والتنظيم فيها تقتضي بناء وحداتها اللغوية علـى نـسق معيّن.

انطلاقاً من هذه الرؤية يسعى البحث الموسوم بـ (دلالة الأنساق اللغويـة في سورة الفاتحة) إلى دراسة هذه السورة من خلال الأنساق التي تكوّنها.

واقتضت طبيعة المادة العلمية المجموعة بناء البحث على أربعة مباحـث ،تناول الأول النسق الصوتي الذي وردت به السورة مركزا علـى بيـان القيمـة الدلالية للأصوات ،فضلا عن دراسة النسق المقطعـي مـع ربطـه بـالترددات الصوتية ومدى تكرار بعض المقاطع أكثر من غيرها.

ويتضمّن المبحث الثاني دراسة النـسق الـصرفي وتوضـيح مرجعيـات اللواصق التصريفية ودلالاتها في الـسورة ،منهـا سـابقة ال، وسـابقة نـون المضارعة، ولاحقة الياء والنون ولاحقة الضمائر.

* قسم اللغة العربية/ كلية اللغات/ جامعة صلاح الدين .

أما المبحث الثالث فقد خصّ بدراسة النسق التركيبي الذي تتألّف منه السورة من خلال الأنساق التركيبية الأحادية كنسق التوابع (الصفة، والعطف ،والبدل)، وتراكيب الإضافة، والأنساق التركيبية الثنائية نحو الحدوث والثبوت ، والتقديم والتأخير.

وعقد المبحث الرابع لدراسة النسق الدلالي والتداولي مبيّنا أثر التماسك والترابط للوحدات الدلالية المركزية والهامشية في السورة مع بيان الأنساق التكرارية ودلالاتها.

ويحاول البحث جاهدا تحديد بنية العناصر الأساسية على مستوى النسق الصوتي، والنسق، الصرفي والنسق التركيبي ، والنسق الدلالي ، والنسق التداولي لسورة الفاتحة مع رصد آلية الترابط والانسجام بين هذه الأنساق التي تتألّف منها.

المبحث الأول : دلالة النسق الصوتي

لاشك في أنّ الصوت يحمل قيمة دلالية داخل التركيب تختلف عن القيمة الدلالية التي يحملها خارج التركيب ،وان الصوت اللغوي يعدّ من العناصر الرئيسة التي يعوّل عليه الإنسان في صناعة الكلام واللغة.

ويحمل التشكيل الصوتي قيمة دلالية متعددة على نسق معين ،ويقصد المتكلم "أحيانا تشكيلا صوتيا بعينه ، ليحقّق معنى معينا ومحددا يقصده ،ولا يكون له ذلك ،إلاّ إذا عرف كيف يستخدم الصوت استخداما يقصد في ذلك التشكيل الصوتي ذاته ،مع مراعاة أن بعض هذه التشكيلات الصوتية تأتي من خلال الفطرة اللغوية التي تصاحب النمو اللغوي عند الإنسان"[١].

وجاءت أصوات القرآن الكريم منسقة على نسق فريد عجيب باهر ،إذ يمثّل كل صوت معجزة بحد ذاته ،ويتناول هذا المبحث بيان النسق الصوتي الذي

(١) عناصر تحقيق الدلالة في العربية / ٥١، د.صائل رشدي شديد ، ط١ ، دارالأهلية للنشر والتوزيع ،عمّان الأردن(٢٠٠٤م).

وردت به سورة الفاتحة من حيث بيان القيمة الدلالية للأصوات التي تتكون منها ،والنسق المقطعي والتردد الصوتي....

وتعد سورة الفاتحة بمثابة مقدمة لكتابه الكريم ،ولها أسماء عديدة منها : أم القرآن ،وأم الكتاب ،وسورة الحمد ،والسبع المثاني، والوافية، والكافية، والأساس ، والصلاة، والسؤال[١]،..وأسماء أخرى، والأرجح تسميتها بـ(أم القرآن)؛ لأَنَّها تتضمن معظم مقاصد القرآن الكريم، وتسميتها بـ(السبع المثاني) أَيضاً فيها رجاحة القول، بدليل قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[٢]، وفي سبب تسميتها بالمثاني وجوه منها: نصفها ثناء العبد للرب ، ونصفها عطاء الرب للعبد، ولأَنَّها تثنى في ركعات الصلاة كلها، ومستثناة من سائر الكتب، وتقرأ في الصلاة ثم أَنَّها تثنى بسورة أخرى، ولتضمنها ثناء على الله تعالى، أو لأَنَّها نزلت مرتين، مرة بمكة، ثم ثنيت فنزلت بالمدينة، والسبع يدل على أن آياتها سبع وأبواب النيران سبعة، أو جاء متناسباً والأَعمال المحسوسة السبعة في الصلاة، وهي: القيام، والركوع، والانتصاب، والسجود، الأول ، والانتصاب فيه، والسجود الثاني، والقعدة، أو سمي بذلك؛ لأَنَّها تتضمن سبع مثان[٣] كما هو موضح في الجدول الآتي :

(١) ينظر:جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٥٦/١، ٥٧، أبو جعفر الطبري (ت٣١٠ هـ) ،تحقيق: محمود شاكر ،ط١ ،دار إحياء التراث العربي ،بيروت ،لبنان(١٤٢١هـ = ٢٠٠١م) ،ومفاتيح الغيب : ا/ ١٥٦ وما بعدها، الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) ،ط٤ ، دار إحياء التراث العربي ،بيروت ،لبنان (١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م).

(٢) الآية ٨٧ من سورة الحجر (١٥).

(٣) التفسير القيم / ١١، ابن قيم الجوزية،(ت ٧٥١ هـ)، ط ١ ، دار ومكتبة الهلال ، (١٤١٠هـ = ١٩٩٩م) ،وخواطر من تأمل لغة القرآن الكريم ،د. تمام حسان ،ط١ ،عالم الكتب ،القاهرة(١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م).

المثانى الألوهية	المثانى الإلهية
ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ	رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ	
مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ	
إِيَّاكَ نَعۡبُدُ	وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ
ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ	

والسبع المثانى هي :

ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ← (١)

رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ← (٢)

ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ← (٣)

مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ← (٤)

إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ← (٥)

ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ← (٦)

غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ← (٧)

القيمة الدلالية للصوت:

تتماز الأصوات في سورة الفاتحة بنصاعة بيانية فنية معجزة ،إذ إن كل صوت ذو قيمة تعبيرية دلالية معينة ،فعلى سبيل المثال في الآية الكريمة ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾كل صوت له قيمة دلالية ،منها حلقية الهاء في (أهدنا) لها علاقة بالثبات والإيمان ،وتمكن اليقين من ملكات النفس ،وتكون القناعات ،فانبعث الدعاء من كوامن التسليم والرضا بثبات المتمسك بإيمانه استمساكا لا تؤثر فيه التغيّرات ولا النوازع ،إذ ترسمه (الدال) طريقا مستقيمة.

والصراط بمعنى الطريق التي أوصلت المجاهدين المؤمنين ،والصاد ناصعة الدلالة على تلك المكابدات التي تشدد في مراس سبيلها المؤمنون ،وألف الصراط تمثل صورة تلك الحياة، وأصدائها التي ترددها جنبات الوجود التي احتفلت بمجاهدات الصالحين ولا وهن فيها ،تدل عليه الراء في شيوع وصفها المتملّك ،حتى رسمت الطاء حدود تلك الملكية التي يسعى إليها المعتصمون بالله والراغبون بلقائه.

وللضاد أيضا قيمة دلالية موحية في قوله تعالى : ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ بصورة التهويل بتشدّد الضاد التي تجلجل بملء الفم دالة على تعمّد الانحراف والتأصل فيه يحتوي كيان أهله ومتّبعيه، وتأتي (الألف) متمثلة صورة فراغ الضال من الإيمان، والرضا، والطمأنينة ،لأنها الصوت الذي يحمل صورته في فراغية الوجود ومبدأ المسير الثابت على أصل خطّه الابتعاد عن نهج الفطرة والتسليم[١]،كما يسهم المد المثقل الكلمي ّأيضا في"دلالة التمادي والضلال والثبوت عليه "[٢]، فضلاً عن كون اللام المشدّدة مظهراً لونياً لصورة الإصرار الانحرافي الذي بات تطبّعا مؤكّدا بتكلّف أهله.

إذن فانتقاء لفظ (ٱلضَّآلِّينَ) انتقاء إعجازي لصوت يدلّ بذاته على عواقب الموسومين به، المتصفين بصفاته وليكون أردع وأفعل في بلوغ الرسالة وتوجيه العناية للنجاة من النار وعذاب الجبّار[٣].

(١) الصوت اللغوي ودلالاته في القرآن الكريم /٩٤،٩٥، د.محمد فريد عبد الله ،ط١،دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر (٢٠٠٨ م).

(٢) الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم/ ١٧، د. عبد الحميد هنداوي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، د.ط، د.ت

(٣) الصوت اللغوي ودلالاته في القرآن الكريم /٩٥، ٩٦.

أنساق التشكيل المصوتي:

تشكل المصوتات القصيرة والطويلة بناء مفردات سورة الفاتحة بصورة ملحوظة إذ تفوق ضعف نسبة الصوامت ،وهذا يدلّ على أنّ للمصوتات قيمتها الكبيرة في تركيب اللغة، نظرا لقوة وضوحها السمعي أكثر من الصوامت(١).

ويلحظ أن الإعلال يسهم في ثلاثة مواضع في السورة ،الأول :الإعلال بالحذف في قوله : (اهدنا) ،وهو مبني عند البصريين بحذف الياء ،ومعرب عند الكوفيين ،وحذف الياء منه جزم والألف ألف وصل كسرت في الابتداء لسكونها وسكون ما بعدها ، ولأنها اجتلبت ليبدأ بها(٢) ،والثاني:في (نستعين)، والثالث في (المستقيم) وأصلهما :نستعون ،والمستقوم، على وزن مستفعل، والواو المكسورة تمثل حركة مزدوجة وهي ثقيلة، فاجتلبت الكسرة ياء بدلا من الواو اقتضاء لقانون الخفة الصوتية والتخلص من الازدواج (٣).

التناسق بين المصوتات والدلالة

هناك تناسق عجيب بين نوعية الحركة والدلالة في ألفاظ هذه السورة ،فمثلا حركة الضمة على الدال في (الحمد لله) تدلّ على الثبوت والدوام(٤) ،والرفعة ،والعلو ،في حين أن الجملة تعدّ من مقول القول فكان مقتضاها : الحمد بفتح الدال ،على تقدير :أقول : (الحمد لله)، فعدل عن النصب إلى الرفع ، للدلالة

(١) أصوات اللغة / ١٣٦ ،د.عبد الرحمن أيوب ،ط١ ،مطبعة دار التأليف ،القاهرة (١٩٦٣) ،والمختصر في أصوات اللغة العربية /١٤١، د.محمد حسن جبل ،ط٤ ،مكتبة الآداب ،القاهرة ، (١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م).

(٢) شرح الشافية : ٣ / ١٨٥ ،الأستراباذي (ت ٦٨٦ هـ) ،تحقيق :محمد نور الحسن وآخرون ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان (١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م)،ومشكل إعراب القرآن : ١ / ٧١ ،مكي أبو طالب القيسي ، (ت ٤٣٧ هـ)، تحقيق :د. حاتم صالح الضامن ،دار الحرية ،بغداد (١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م).

(٣) مشكل إعراب القرآن : ١ / ٧٠، ٧١.

(٤) التحرير والتنوير: ١ / ١٥٦ ،محمد الطاهر بن عاشور ،ط١ ،مؤسسة التاريخ ، بيروت ،لبنان (١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م).

على أن الحمد ثابت لله تعالى منذ الأزل ، وإن لم يحمده أحد ،لأنه حمد نفسه بنفسه قبل أن يحمده الخلق[١].

نسق التشكيل المقطعي والتردّد الصوتي :

يحاول البحث دراسة المقاطع الصوتية من خلال ربطها بالترددات الصوتية ،ومدى تكرار المقاطع بأنواعها ،مع نسبة تكرار بعض الأصوات أكثر من نظيراتها.

البنية المقطعية للسورة :

قبل البدء بتحليل المقاطع وتحديد أنواعها لا بدّ من الإشارة إلى أن المفسرين اختلفوا في كون البسملة آية من سورة الفاتحة ،ذكر ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ) في ذلك خمسة أقوال،إذ استدل كل منهم على ما اختاره بوجوه يقتضيها العقل والمنطق ، فالقول الأول: إنّها آية من الفاتحة فقط ،والثاني : انها آية من أول الفاتحة ومن أول كل سورة وهو الأصح في مذهب الشافعي ،والثالث: إنها آية من أول الفاتحة بعض آية من غيرها ،والرابع : انها آية مستقلة في أول كل سورة لا منها ،والخامس : انها ليست بآية ولا بعض آية من أول الفاتحة ولا من أول غيرها ،وإنما كتبت للتيمن والتبرك [٢]،والأرجح انها آية من سورة الفاتحة ،وبها تحتسب آياتها سبعا ،لأن هناك قولا يؤكد أن المقصود

(١) العربية وعلم اللغة الحديث / ٣٣ ،د. محمد محمد داوود ،دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة ، (٢٠٠١ م).

(٢) النشر في القراءات العشر :١ /٢١٠ ،ابن الجزري ،تحقيق :محمد الضباع ،ط٢ ،منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٤٢٣هـ =٢٠٠٢م).

بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [1] هو سورة الفاتحة[2].

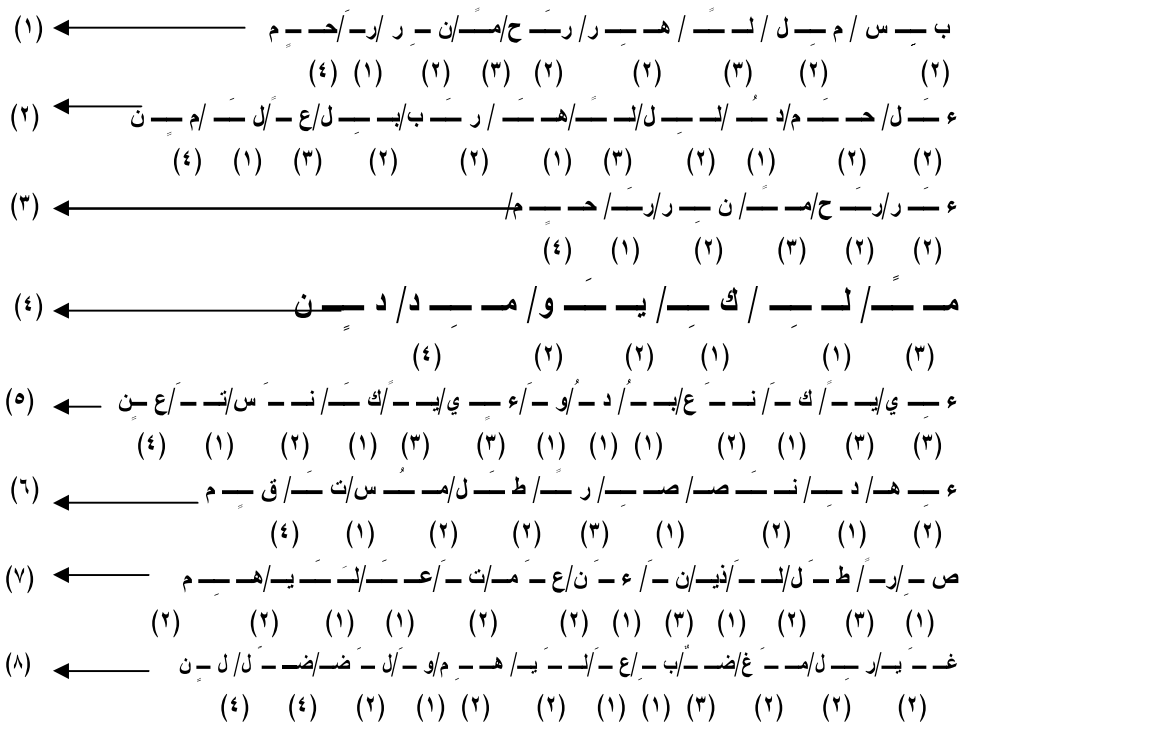

يشير الرقم (١) إلى المقطع القصير، والرقم (٢) رمز للمقطع الطويل المغلق، والرقم (٣) رمز للمقطع الطويل المفتوح، والرقم (٤) رمز للمقطع المديد المقفل بصامت.

---

(١) سبق تخريج الآية.

(٢) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم / ١٨، ابن خالويه (ت ٣٧٠ هـ)،دار السرور، بيروت، لبنان (١٩٣٨م)،وفي ظلال القرآن : ١ /٢١ ،سيد قطب ،ط٣٤ ، دار الشروق، بيروت (١٤٢٥هـ =٢٠٠٤م).

تتألف السورة من ثمانية وسبعين مقطعا ،إذ يبلغ عدد المقاطع القصيرة أربعة وعشرين مقطعا ،والمقاطع الطويلة المغلقة يبلغ عددها اثنين وثلاثين مقطعا ،كما ويبلغ عدد المقاطع الطويلة المفتوحة أربعة عشر مقطعا ،ويبلغ عدد المقاطع المديدة المقفلة بصامت ثمانية مقاطع، ويمكن بيان نسبة تردد أنواع المقاطع من خلال الجدول الآتي:

نوع المقاطع	النسبة الأصلية	النسبة المئوية
القصير	٢٤	٣٠,٧٦
الطويل المغلق	٣٢	٤١,٠٢
الطويل المفتوح	١٤	١٧,٩٤
المديد المقفل بصامت	٨	١٠,٢٥

يتبين من هذا الجدول أن نسبة تردد المقاطع الطويلة المغلقة تفوق نسبة ورود الأنواع الأخرى من المقاطع ، ولعلّ المسوّغ في ذلك انسجامها وطبيعة الموضوعات التي تعالجها هذه السورة ،إذ تدلّ على الحصر والقصر ،وكأنّ المسلمين يقصرون العبادة عليه تعالى والاستعانة به ، والمقطع الطويل المغلق أنسب مقطع للتعبير عن معاني الحسم والقصم "والجزم القاطع والجد الفاصل".(١)

وتقسّم الأصوات اللغوية من حيث الترددات على ثلاثة أقسام :أصوات ذات ترددات عالية (high vibration)يرمز بـــ (h.v)، وأصوات ذات ترددات متوسطة (vibration medium) يرمز بـــ (m .v) ،وأصوات ذات ترددات واطئة(law vibration) ، يرمز بـــ (l.v) (٢).

فيما يخص الآية الأولى:

(١) لغة القرآن الكريم في جزء عمّ/ ٣٦١، د. محمود أحمد نحلـــة ،دار النهـــضة العربيـــة للطباعة والنشر، بيروت (١٩٨١).

(٢) دراسة الصوت اللغوي /٢٣ وما بعدها ،د.أحمد مختار عمر ،ط١ ،عالم الكتب ،القـــاهرة ،ومحاضرات الدكتور نوزاد حسن أحمد الملقاة على طلبة الـــدكتوراه للـــسنة الدراســـية (٢٠٠٣ – ٢٠٠٤).

(h.v) = (ب.م.ل.ل.ر.ر.م.ن.ر.ر.م).

(m .v) =(س.هـــ.ح. ح).

∅ = (l.v)

(العالي)

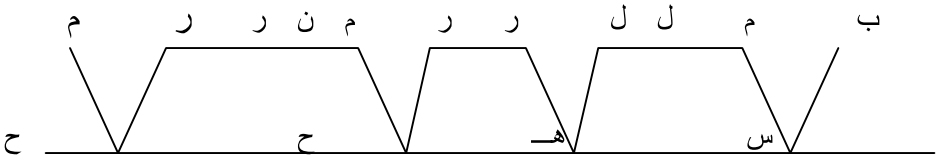

المتوسط

(الواطئ)

الآية الثانية :

(h.v) = (ل.م.ل.ل.ر.ب.ب.ل.ل.م.ن).

(m .v) = (ء.ح.د.هـــ. ع).

∅ = (l.v)

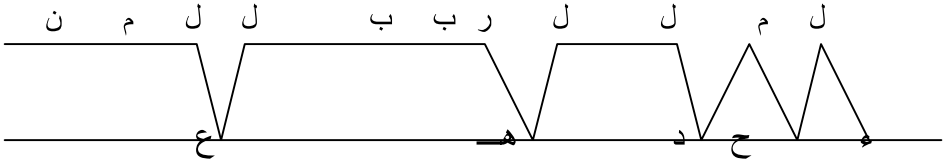

الآية الثالثة :

(h.v) = (ر.ر.م.ن.ر.ر.م).

(m .v) = (ء.ح. ح).

∅ = (l.v)

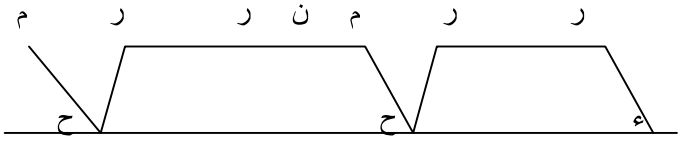

الآية الرابعة :

(h.v) = (م. ل. م.ن).

(m .v) = (ك.ي. د.د).

(l.v) = ∅

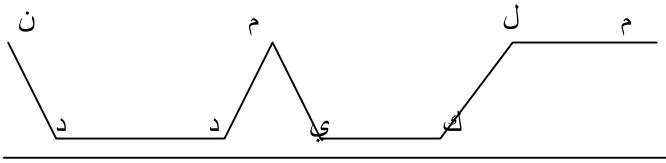

الآية الخامسة :

(h.v) = (ن.ب.ن. ن).

(m .v) = (ء.ي.ك.ع.د.ء.ي.ك.س.ع.و).

(l.v) = (ت).

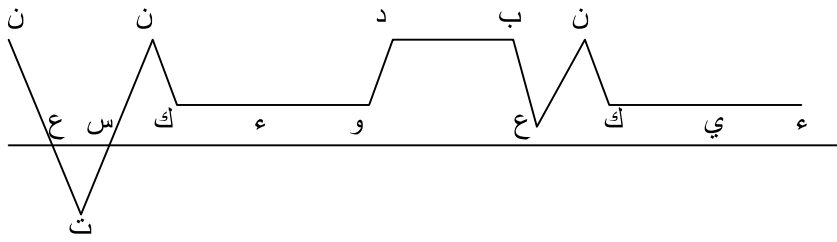

الآية السادسة :

(h.v) = (ن.ر.ل.م.م).

(m .v) = (ء.هـــ.د.س.ق).

(l.v) = (ص.ص.ط.ت).

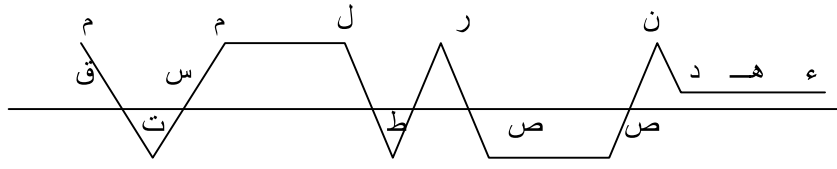

الآية السابعة :

(h.v) = (ر.ل.ل.ن.ن.م.ل.م.ر.ل.م.ب.ل.م.ل.ل. ل.ن).

(m .v) = (ء.ع.ع.هـــ.ع.هـــ.و).

(l.v) = (ص.ط.ذ.ت. غ.غ.ض.ض.ض).

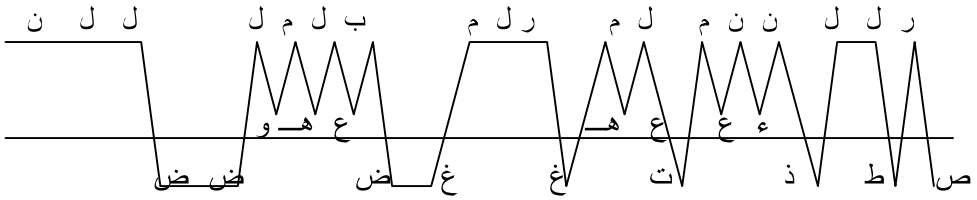

فالأصوات ذات الترددات العالية يبلغ عددها واحدا وستين صوتا أي : ٥٣,٩٨%، أمّا الأصوات ذات الترددات المتوسطة فيبلغ عددها ثمانية وثلاثين صوتا أي : ٣٣,٦٢ %، والأصوات ذات الترددات الواطئة يبلغ عددها أربعة عشر صوتا أي :بنسبة ١٢,٣٨ %.

ويؤكد هذا الاستقراء هيمنة الأصوات ذات الترددات العالية في فضاء سورة الفاتحة، إذ تشكّل أكثر من نصف أصواتها التي تتكوّن منها، وهذا يتناغم مع سياق السورة الدال على مقام الحمد، والثناء، والعلو، والاستعانة بالله وطلب العون منه تعالى، وكأنّ السورة بمثابة شعار للأمة الإسلامية، والأصوات ذات الترددات العالية هي خير ما يمثّل هذا الشعار العالي والثقيل إلى يوم الدين .

ويلحظ أن النون والميم واللام أكثر استعمالا ضمن لائحة الأصوات ذات الترددات العالية، لأنَّها "عالية النسبة في الوضوح السمعي، وتكاد تشبه أصوات اللين في هذه الصفة.....إذ تسمّى بـــ"أشباه أصوات اللين" (١).

ويلحظ أن نسبة ورود الأصوات ذات الترددات الواطئة ضئيلة جدا، إذ لم تشكّل أية بنية صوتية إلى الآية الخامسة ،في حين وردت مرة واحدة في سياق

(١) الأصوات اللغوية / ١٣٢ ، د. إبراهيم أنيس ،ط٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القـــاهرة (١٩٩٩م).

الآية الخامسة، وأربع مرات في الآية السادسة، أمّا الآية السابعة فتعوّل على عدد كبير في تشكيل بنيتها الصوتية، وهذا يتآزر مع سياق المغضوب عليهم والضّالّين ،والأصوات ذات الترددات الواطئة هي خير ما توحي بأعمالهم الدنيئة والسفيهة.

ويرى المتمعّن أنّ الأصوات المكررة ذات الترددات العالية والمتوسطة والواطئة وردت بهذا النسق الآتي :

(h.v) = (ب. ب. ب.ب. ب) ، (ن. ن. ن. ن. ن. ن. ن. ن. ن. ن. ن)، (ر. ر. ر.ر. ر. ر. ر. ر. ر.ر. ر.ر) ، (م. م. م. م. م. م. م. م. م. م. م.م.م.م. م) ، (ل. ل. ل. ل. ل. ل. ل. ل. ل. ل.ل. ل. ل. ل.ل. ل).

(m .v) = (و. و) ، (س. س.س) ، (ك. ك. ك) ، (ي.ي.ي) ، (هـ. هـ.هـ. هـ. هـ) ، (ج. ج. ج. ج.ج) ، (د. د. د. د. د) ،(ء. ء. ء. ء. ء. ء. ع. ع. ع. ع. ع. ع).

(l.v) = (ط. ط) ، (غ.غ) ، (ت. ت. ت) ، (ص. ص.ص) ، (ض. ض.ض) .

ويبدو من هذه التجمعات الصوتية أنّ الميم والنون أكثر استعمالا من الأصوات، الأخرى لأنهما صوتان موسيقيان يتميّزان بالترنّم والغنة ، ويتناسبان مع هذه السورة التي تعدّ شعارا للمسلمين ،إذ منح هذان الصوتان موسيقى هادئة وراخية للسورة كلها ،وأصوات الحلق أيضا مستعملة بصورة ملحوظة في نسقها ،وهي تتناغم ومضمون السورة الدال على الحمد والثناء ،والعبادة ،والاستعانة وطلب العون ،وكأنّ هذه الدلالات تقتضي أن تنبع الأصوات من داخل الإنسان

وصميمه أي من الحلق والحنجرة ،للدلالة على حمد ربّه بأجمل صورة وأمكنها، ولذلك تسمّى أصوات الحلق بـ (حروف الإظهار)[١] .

النسق الأسلوبي لتنوع الفواصل:

تشكّل الفواصل القرآنية نسقا من أنساق الإعجاز ،وحروف الفواصل إمّا متماثلة وإمّا متقاربة كما اتّفق على ذلك معظم اللغويين قديما وحديثا[٢] ،ووردت فواصل سورة الفاتحة على نسق متقارب ،أي حروف رويّها متقاربة ،لأنّ الميم والنون متقاربتان.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الفواصل القرآنية تنتهي بالنون والميم المسبوقتين بحروف المد، وتلك هي الأجزاء الطبيعية في الموسيقى نفسها ،كما ذكر سيبويه (ت ١٨٠ هـ) أن العرب إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون، للتمكّن من التطريب بذلك، لأنهم أرادوا مدّ الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنّموا[٣].

والفواصل التي تنتهي بها آيات هذه السورة صور تامّة الأبعاد التي تنتهي بها ،ولعل النون والميم يشاركان في خلق الجو النفسي للدعاء، لأن طول مدّتها

---

(١) أسرار صناعة اللغة / ٤٧ ،د.محمد مصطفى ،ط١ ،دار كيوان للطباعة والنشر ،دمشق ،سورية (٢٠٠٨م).

(٢) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٦٧ ،الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) ،تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ،بيروت ،لبنان(١٤٢٧هـ =٢٠٠٦م)، والإتقان : ٢ / ٢٠٨ ،السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق :فوّاز أحمد ،ط٢ ، دار الكتاب العربي(١٤٢١هـ =٢٠٠١م)، والفاصلة القرآنية / ٧ ،د.عبد الفتاح لاشين، دار المريخ للنشر ،الرياض(١٤٠٢هـ =١٩٨١م)، والفاصلة في القرآن / ٣٥٦ ، محمد الحسناوي ،ط١ ،دار عمار ،عمّان ، الأردن (١٤٠٦هـ =١٩٨٦م).

(٣) الكتاب: ٤ / ٢٠٤ ، سيبويه ،تحقيق :عبد السلام هارون ،عالم الكتب للطباعة ،بيروت (١٩٧٥ م) ، ومن أسرار القرآن / ١٠٦ ،علي محمد العماري ،ط١ ،مكتبة وهبة ،القاهرة (١٤٢١هـ =٢٠٠١م).

الزمنية من حيث السمع يتناسب وطبيعة الدعاء المملوء بالصدق ،وتفاعل أجـزاء البدن جميعها في أدائه(١).

وتنتهي فواصل السورة كلها بمقاطع مديدة مقفلة بصامت واحد ،وجـاءت أربع آيات منتهية بمقطع مديد مقفل بصامت وقبله مقطع قصير وقبلهمـا مقطـع طويل مغلق على النحو الآتي :

ن ـِـ ر / ر ـَـ / ح ـٍـ م
ن ـِـ ر / ر ـَـ / ح ـٍـ م
م ـُـ س / تـ ـَـ / ق ـٍـ م

وقبلهما مقطع طويل مفتوح في فاصلة آية واحدة كما في : ع ـًـ / لـ ـَـ/ مـ ـٍـ ن، وقبله مقطعان طويلان مغلقان في فاصلة آية واحدة كمـا في: يـ ـَـ و/ مـ ـِـ د/ د ـٍـ ن، وقبل الأخير مقطع مديد مقفل بـصامت وقبلهما مقطع طويل مغلق كما في : لـ ـَـ ض/ ضـ ـًـ ل/ لـ ـٍـ ن، وهذا ما يسمّى بـ (التشابه المقطعي في فواصل السور).

ومن الناحية الأكوستيكية ،لقد توصّل المحدثون إلى أنّه في حالة تـسجيل الذبذبات الصوتية لجملة من الجمل فوق لوح حسّاس يظهر أثر هذه الذبذبات فـي شكل خط متموّج، ويتكوّن هذا الخط من قمم ووديان ،وتلك القمم هي أعلـى مـا يصل إليه الصوت من الوضوح، وتحتلّ المصوتات تلك القمم ،في معظم الأحيان ، تاركة الوديان للصوامت، ومن ثمّ وجد المحدثون أنّ الـلام ،والنـون ،والمـيم تحتل القمم في بعض الأحيان ،مثلها في هذا مثل المصوتات ، ولهذا وصـفوا ذه الأصوات الثلاثة بـ أصوات مقطعية (syllabic phonemes) (٢).

(١) التعبير القرآني والدلالة النفسية / ١٧٥ ،د.عبد الله محمد الجيوسي ،ط١، دار الغوثـاني، بيروت ،لبنان، (١٤٠٦هـ =١٩٨٦م).
(٢) الأصوات اللغوية / ١٣٢.

ويستغرق النون زمنا أطول في إنتاجه ،ويليه اللام ،ثم الراء ،ثم الميم ،وفسّر هذا بأنّه كلما قلّ تردّد الصوت زاد ذلك من زمن إنتاجه ،وكلما زاد تردد الصوت قلّ من زمن إنتاجه، وقد كان الميم أكثر تردّدا بين الصوامت الرنينية ،فجاء أقصر الصوامت الرنينية زمنا ،والنون أقلّ الصوامت الرنينية تردّدا، فزاد هذا من زمن إنتاجه ،أو بعبارة أخرى الضغط الأعلى مع الميم ثم النون، لأن تضاغطات جزئيات الهواء وتخلخلاتها كانت أسرع مع الميم(١).

وان الميم الموقوف عليه يستغرق زمنا أطول من الميم في الدرج ،كما أنّ النون الموقوف عليه يستغرق زمنا أطول من النون في الدرج ،لأسباب منها: سبب عضوي ،وهو استعداد أعضاء النطق لإجراء عملية التوقف الكلامي وما تحتاجه هذه العملية من تقليل تدريجي في نشاط الأعضاء المشاركة في إنتاج النون ،وسبب آخر سمعي يتمثّل في خفوت النون الموقوف عليه بسبب الوقف ،وسبب لغوي يتعلّق بالنبر الذي يسير في العربية من الخلف إلى الأمام،لأنّ المقطع المنبور يحتاج إلى جهد إضافي،وهذا الجهد يقتضي زمنا أطول لتأديته(٢).

والنون صوت فيه غنّة تزيد من الجمال الموسيقي والتناسق الإيقاعي الفني للسورة(٣)، ولهذا تنتهي فواصل أربع آيات برويّ النون ،وثلاث آيات تنتهي بروي الميم على نسق منظّم، إذ وقع رويّ النون في الآية الرابعة فاصلا بين ثلاث آيات منتهية برويّ الميم والنون والميم قبلها، وثلاث آيات منتهية برويّ النون والميم والنون بعدها بشكل هندسي يمكن توضيحه على النحو الآتي :

(١) الخصائص النطقية والفيزيائية للصوامت الرنينية في العربية / ٢٤٨ ، د.محمد فتح الله ،ط١ ،عالم الكتب للنشر والتوزيع ،إربد ، الأردن(١٤٢٨هـ =٢٠٠٨م).
(٢) المصدر نفسه.
(٣) دراسة الصوت اللغوي / ٣٩٧.

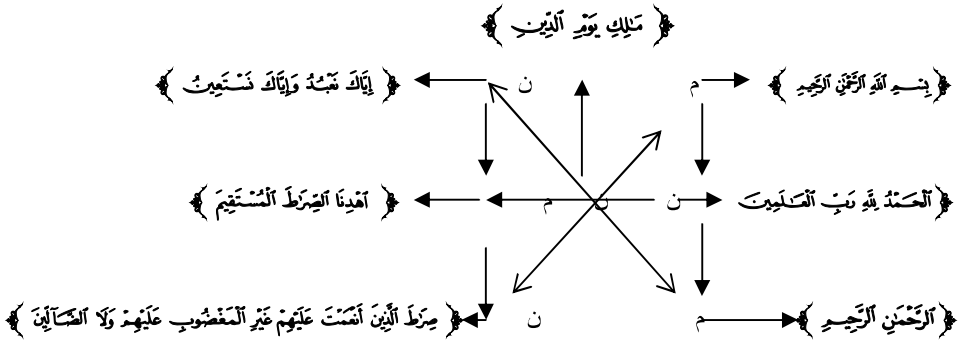

وهكذا فإنّ الفواصل تتراوح بين الميم والنون ،وهما متقاربان ،واقتضت طبيعة سرد الموضوع الانتقال من رويّ الميم إلى رويّ النون ،لأنّ الموضوعات متقاربة ،فعلى سبيل المثال البسملة تنتهي برويّ الميم ، والرحمان الرحيم وصفان أو اسمان من الأسماء الحسنى ،ثم يقتضي الحمد والثناء الانتقال من الميم إلى النون ،للدلالة على تقارب الموضوعين ،ثم يكرّر الرحمان الرحيم ،ثم ينتقل إلى النون مرّة أخرى في وصف الذات وتنزيهها بـ ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، ثم تقتضي الآية التي تأتي بعد الآية المذكورة الآيتان برويّ النون وعدم الانتقال إلى الميم وكأنّ معنى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾يقتضي العبادة والاستعانة به، ثم يتحوّل الرويّ إلى الميم لانتقال الموضوع إلى الدعاء في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ،ثم يتغيّر الروي إلى النون في بيان كيفية هذا الصراط.

يبدو ممّا تقدّم : انّ حرف الروي يتغيّر بتغّير المعاني والمشاهد ويضفي على الجرس القرآني حسنا وبهاء ورونقا ،كما يتحقّق من خلالها الانسجام الصوتي بين الألفاظ ،وخلق إيقاع صوتيّ أحدثه تناغم الفواصل، وهذا ما حدا بأحد الباحثين المحدثين أن يذهب إلى أنّ تقديم (إيّاك) قد حصل لغرض الفواصل إذ قال : "إنّ العناية بالشكل في نظام الفواصل هذا هي وحدها استدعت هذا

التقديم وليس من أجل غرض آخر "[١] ، والأرجح أنّ رعاية الفواصل لم تكن لرعاية شكلية فحسب ،بل وردت لمقتضيات معنوية منسجمة مع نسق الإيقاع لهذه الفواصل"[٢].

المبحث الثاني : دلالة النسق الصرفي:

يتناول هذا المبحث دراسة النسق الصرفي لسورة الفاتحة من خلال المورفيمات المقيدة أو اللواصق التصريفية بأنظمتها السوابق(prefixes) ، واللواحق (suffixes)، وقد ساهمت لواصق عديدة في تشكيل المباني الصرفية للسورة ،منها سابقة ال، وسابقة نون المضارعة، ولاحقة الياء والنون، ولواحق الضمائر، ولهذه اللواصق مرجعيات واقتضاءات استعملت بأنساق معيّنة.

سابقة(ال)

تسهم سابقة (ال) التصريفية في تشكيل مجموعة من مفردات السورة منها : الرحمان، الرحيم ،الحمد ، العالمين ،الرحمان ،الرحيم ،الدين ،الصراط ،المستقيم ،المغضوب ،الضّالّين بدلالات متعدّدة نحو : إفادتها الاستغراق في (الحمد) أي لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى ،ولهذه السابقة في (الحمد) معنى لا يؤدّيه قول القائل : (حمدا) بإسقاط الألف واللام ،ودخولها في الحمد يعني أنّ جميع المحامد والشكر الكامل لله ،ولو أسقطنا منه لما دلّ على هذا المقصود[٣].

(١) من وحي القرآن / ١٣١ ، د. إبراهيم السامرائي ،ط١ ،مؤسسة المطبوعات العربية ، بيروت ،لبنان (١٤٠١هـ =١٩٨١م)،

(٢) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق / ٢٤٩ ،د. عائشة عبد الرحمن ،ط٣ ، دار المعارف بمصر، القاهرة (٢٠٠٤ م).

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ١ / ٧١ ،وتفسير القرآن العظيم : ١ /١٢٣.

وتفيد سابقة (ال) دلالة الغلبة في قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾وتفيد العهد الذهني في قوله تعالى : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾،"لأنهم سألوا الهداية لهذا الجنس في ضمن فرد وهو الفرد المنحصر فيه الاستقامة "[١] ،والمراد به الهداية إلى الصراط المعين الذي جعله الله تعالى لأهل نعمته ،وأفادت (ال)انه أحقّ الطريق ،لأن ّالألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنّه أحقّ بتلك الصفة من غيره[٢].

سابقة نون المضارعة:

وردت هذه السابقة ملتصقة بفعلين في السورة ،وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ ،وتدلّ سابقة النون على أنّ المراد هو الإخبار عن جنس العباد ،والمصلي فرد منهم ولا سيّما إن كان في جماعة وإمامهم ،فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا لأجلها وتوسّط لهم بخير ،ويجوز أن تكون للتعظيم ،كأنّ العبد قيل له إذا كنت داخل العبادة فإن ّمقامك عظيم ،وجاهك عريض فقل : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، وإن كنت خارج العبادة فلا تقل : نحن ولا فعلنا ، أو تدلّ على التواضع ، لأنّ إيّاك نعبد أنسب من إياك أعبد لما في الثاني من تعظيم نفسه [٣].

وذكروا أنّ سابقة النون تنبيه على أنّ الأولى بالإنسان أن يؤدّي صلاته بالجماعة ، أي أنّ الإنسان لو قال : (إيّاك أعبد وإيّاك أستعين) فقد ذكر بذلك عبادة نفسه

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ١ / ١٨٨ ، وصفاء الكلمة / ٣٣ وما بعدها ، د. عبد الفتاح لاشين ، دار المريخ للنشر ، الرياض (١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م).

(٢) ينظر:التفسير القيّم /١٨، ١٩ ،وبدائع الفوائد : ٢ / ١٩٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم : ١ / ١٢٨ ، ١٢٩ ، ابن كثير الدمشقي ،تحقيق :عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان (١٤٢٩هـ =٢٠٠٨م).

ولم يذكر عبادة غيره، أمّا بالنون فقد ذكر عبادة نفسه وعبادة جميع المؤمنين شرقا وغربا، فكأنّه سعى في إصلاح مهمات المسلمين [1].

وان الموقف فيه هضم النفس ، والاعتراف والإقرار بالعبوديّة لرب العالمين ،وفيه إعلان عن حاجة الكلّ إلى عبادته سبحانه ، التي خلقهم الله تعالى لأجلها وهو تصريح بأنّ جميع العباد العابدين واقفون في هذه الباب بكلّ خضوع وافتقار[2].

ولعلّ سابقة النون مستعملة في الآية أيضا لجرسها الرنّان وغنّتها ، لأنّ النون صوت موسيقي فضلا عن خفتها اللفظية ،وإذا قاله سبحانه بالإفراد ،فتفقد الآية جماليتها وخفتها اللفظية ،لأنّ الهمزة في (إيّاك) تكون ثقيلة إذا اجتمعت مع الهمزة في (أعبد).

لاحقة الياء والنون:

ورد استعمال هذه اللاحقة ثلاث مرات في السورة ملتصقة بـ (عالم) في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وملتصقة بـ (ضال) في قوله تعالى :﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾، للدلالة على الجمع، وعالم لا واحد له من لفظه ولا من غير لفظه كالأنام والرهط والجيش، وهو جمع لأشياء مختلفة أو اسم لأصناف الأمم ،وكل صنف منها عالم ،وأهل كل قرن من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان [3] ،واشتقاقه من العلم هو اسم لذوي العلم من الملائكة والثقلين،وجمع ليشمل كل جنس ممّا سمّي به ،وهو اسم غير صفة إلاّ أنّه التصق بلاحقة الياء

(١) مفاتيح الغيب :١ /٢١٢.

(٢) حول تفسير سورة الفاتحة أم القرآن / ١٠٥ ،عبد الله سراج الدين ، ط١ ،مطبعة الصباح ،دمشق (١٤٢٠هـ =٢٠٠٠م).

(٣) جامع البيان في تفسير آي القرآن :١ /٧٣ ،وإعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم / ٢٢.

والنون وهي من صفات العقلاء أو ما في حكمها من الأعلام لمعنى الوصفية فيه وهي الدلالة على معنى العلم(١).

وممّا يجدر ذكره أنّ (عالم)يجمع على (عوالم)أيضا ، لكن التعبير القرآني آثر استعمال (العالمين)،لأنّ العوالم يطلق على جميع العوالم من المكلّفين من خلق الله من الإنس والجن على مرّ العصور ،وغيرهم من جمادات وغير ذلك ،أمّا (عالمين) فلا يطلق إلاّ على ذوي العلم خاصّة أو على ما اجتمع فيه العقلاء وغيرهم (٢).

وهذا التخصيص دليل على " أنّ الكلام في سورة الفاتحة خاص بالعقلاء ،فالعبادة والاستعانة وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم..... هو خاص بالمكلّفين ،فكان هذا الاختيار أنسب شيء ، ولو قال تعالى : رب العالم ، ورب العوالم لم يحسن هذا الحسن "(٣) ولا يتناغم مع نظام الفاصلة المتّبع في السورة.

وجلّ ما سلف دليل على أنّ لنسق هذه السورة مقتضيات تركيبية وبلاغية معنوية، وجمالية لفظية، إذ تتعاور الجهتان (اللفظ والمعنى) في تحقيق مزايا إعجازية.

لواحق الضمائر:

تسهم الضمائر في تحقيق الانسجام التطابقي والتوافق الشكلي في السياق ،وتحدّد دلالات العدد والشخص والنوع(٤)، وورد في السورة استعمال مجموعة من الضمائر يمكن توضيحها في الجدول الآتي :

---

(١) الكشاف : ١/ ٢٠ ،٢١،والتبيان في إعراب القرآن : ١ /١٥ ، أبو البقاء العكبري (ت ٦٠٦ هـ)، تحقيق : مدمد حسين شمس الدين ، ط١ ،دار الكتب العلمية بيروت ،لبنان (١٤١٩ هـ = ١٩٩٨ م).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١ / ٥٤ ،٥٥.

(٣) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل / ٢٢ ،د.فاضل السامرائي ،ط١ ،دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد (١٩٩٩ م).

(٤) اللسانيات واللغة العربية : ٢ / ٤٤ وما بعدها ، د.عبد القادر الفاسي ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

ت	المفردة	نوع الضمير	حالته	جنسه	رتبته	تقديره
١ ـ	الرحمن	مستتر	جوازا	شخصي	غائب	هو
٢ ـ	الرحيم	=	=	=	=	=
٣ ـ	مالك	=	=	=	=	=
٤ ـ	إيّاك	منفصل	وجوبا	=	مخاطب	أنت
٥ ـ	إيّاك	=	=	=	=	=
٦ ـ	نعبد	مستتر	=	=	جماعة المتكلمين	نحن
٧ ـ	نستعين	=	=	=	=	=
٨ ـ	أهدنا	=	=	=	مخاطب	أنت
٩ ـ	نا	متّصل	=	=	جماعةالمتكلمين	نحن
١٠ ـ	أنعمت	=		=	مخاطب	أنت

يلحظ أنّ مرجعية الضمائر كانت واضحة ليس فيها غموض ،ويعود معظمها إلى لفظ الجلالة المذكور في أول السورة، فهي إذن مرجعية سابقة (anaphoricreference) [1].

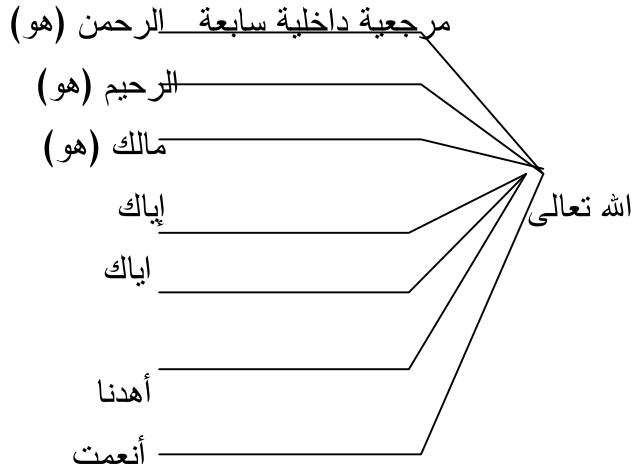

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق : ١ / ١٧٥، د. صبحي الفقي، ط١، دار قباء، القاهرة (٢٠٠٠ م).

وقد يعدل عن ضمير الغيبة إلى الخطاب في السورة ،للدلالة على الالتفات [١]، أي للافتنان في الكلام وتنشيط السامع ومراعاة الفواصل[٢]، فالسورة مبدوءة بأسلوب الغيبة ،ثم انتقلت إلى اسلوب الخطاب بنسق فنيّ متوازي ،وذكر (الحمد) بضمائر الغيبة ،أي بعد إجراء صفات الجلال (الرحمن الرحيم.....) يدرك أنّ العظمة والملك لله الواحد القهار ثم يلتفت إلى مخاطبته تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ،إذ حركته صفات الجلال وارتقت به خضوعا وخشوعا وتقرّبا إلى ربّه جلّ وعلا[٣].

واستعمل ضمير الغيبة للحمد ، وضمير الخطاب للعبادة ،لأنّ الغيبة في الثناء أولى ، والدعاء في الحضور أولى ، ولأنّ الحمد دون العبادة في الرتبة ،لأنّك تحمد نظيرك ولا تعبده، أي أراد أن ينسب إلى العظيم حال المخاطبة والمواجهة ما هو أعلى رتبة[٤].

وورد ضمير (نا) في (اهدنا) متناسقا مع نون الجمع في قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والإتيان بالجمع أحسن، لأنّ المقام مقام عبودية وافتقار إلى الله عزّ وجل، بمعنى: نحن معاشر عبيدك مقرون لك بالعبودية ،والاستعانة، وطلب الهداية منك ،وذكروا أنّ كل عضو من أعضاء العبد، وكل حاسة مفتقرة إلى هداية خاصة به فأتى بصيغة الجمع تنزيلا لكل عضو من

(١) الكشاف : ١/ ٢٤.
(٢) ينظر : كشف المعاني في متشابه المثاني / ٥٢ ، بدر الدين بن جماعة (ت ٧٣٣ هـ) ، تحقيق : محمد محمد داوود ، دار المنار للنشر ، القاهرة (١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م) ،جماليات اللغة وغنى دلالاتها / ٢١٦ ، محمد صادق حسن ،ط١ ، دار الكتب العربية ،القاهرة (١٩٩٣ م).
(٣) مفاتيح الغيب: ٢١٦/١، وتيجان البيان في مشكلات القرآن / ٥٢، الخطيب العمري ، تحقيق: حسن مظفر ، ط١ ، مطبعة جامعة الموصل (١٩٨٥ م).
(٤) البرهان : ٢ : ٢٠٤ ، والإتقان : ٢ / ١٥٨ ، ١٥٩.

أعضائه منزلة المسترشد الطالب لهداه [١]، ،وقيل: "للتقرّب إليه تعالى وتعلّق الفؤاد به ودوام حضوره في نفس المؤمن"[٢]، ولعلّ السورة بمثابة شعار إسلامي جماعي، لأنّ كل إنسان يلزم تكرارها في ركعات الصلاة كلها، ويناسب هذا ورود التعبير بصيغة الجمع.

المبحث الثالث : دلالة النسق التركيبي:

تتماز سورة الفاتحة بإعجاز تراكيبها من حيث بنية النسق الفني للمفردات التي تحتويها، وأشار عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) إلى أنّ مصدر النظم فيها لفظي ومعنوي[٣].

ويحاول هذا المبحث توضيح الأنساق التركيبية التي تحتويها هذه السورة من خلال الأنساق الأحادية والأنساق الثنائية.

أولا : الأنساق التركيبية الأحادية

تحتوي السورة على أنساق نحوية مندرجة ضمن التشكيل التركيبي الأحادي، كـ نسق التوابع (الصفة، والبدل، والعطف)، والإضافة.....

نسق التوابع:

تسهم التوابع في تحقيق التماسك النصي بين آيات السورة وعناصرها ، فمن هذه الأنساق التبعية :

١ـ الصفة

تشكّل الصفة معظم آيات هذه السورة، وتضفي عليها طابع الترابط والانسجام بين عناصرها، فمن أمثلة ذلك : (الرحمن الرحيم) في الآية الأولى و

---

(١) بدائع الفوائد : ٢ / ٢١٧ ، ٢١٨.

(٢) علم المعاني / ٩٠ ، د. بسيوني عبد الفتاح فيّود ، ط٢ ،مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة (١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٤ م).

(٣) دلائل الإعجاز / ٤٥٣، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق : محمود شاكر، ط٥، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤ م)، والموازنات الصوتية من الرؤية البلاغية / ٨٣، د. محمد العمري، ط١، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء (١٩٩١ م).

(ربّ العالمين) في الآية الثانية، و(الرحمن الرحيم) في الآية الثالثة، و(مالك يوم الدين) في الآية الرابعة، و(الصراط المستقيم) في الآية السادسة،و(غير المغضوب عليهم) في الآية السابعة(١).

يلحظ أنّ هذه الصفات معظمها منسوب إلى الباري عزّ وجل أي أنّها مسندة إليه تعالى، للدلالة على المدح والتعظيم من شأنه، وتتناسب هذه الصفات مع سورة افتتح بها القرآن الكريم، لإقرار العبد في إشعاره بأنّ الله تعالى هو الذي يستحقّ الحمد والثناء والتعظيم.

إذن، فالترابط ناشئ من وجود التماسك المعنوي بين عنصري الصفة والموصوف، والمخطط الآتي يوضّح ذلك :

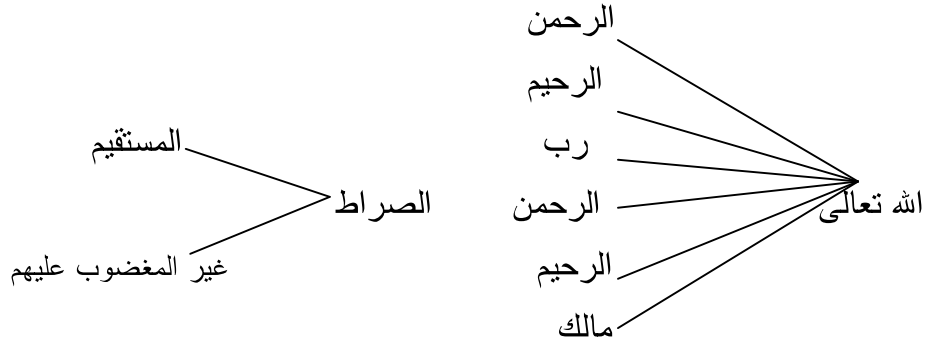

إنّ إجراء هذه الأوصاف على الله تعالى من كونه موجدا للعالمين منعما عليهم بالنعم كلها ظاهرها وباطنها، مالكا لأمورهم يوم الثواب والعقاب ، للدلالة على أنّه الحقيق بالحمد والثناء، لا أحد أحق به منه، بل لا يستحقّه على الحقيقة سواه، وللإشعار باختصاصه تعالى بالعبادة، فهذه الأوصاف بمثابة الدليل على ما أفصحت عنه هذه الآيات الكريمة، فالوصف الأول لبيان ما هو الموجب للحمد، وهو الإيجاد والتربية، والثاني والثالث للدلالة على أنّه متّصل بذلك مختار

(١) ينظر:الكتاب : ٢/ ٥٧، ٦٢، و ٢ / ٧٠، ٧١.

فيه، والرابع لتحقيق الاختصاص، فإنه ممّا لا يقبل الشركة فيه بوجه ما وتضمين الوعد للحامدين والوعيد للمعرضين(١).

ويلحظ أنّ " كمال الاتّصال يتحقّق....في جمل النعت..... وعدم وجود أداة عطف رابطة بين الصفة والموصوف، لأنّهما واحد في المعنى.....وهذه النعوت أسهمت في تحقيق التماسك النصي بين آيات السورة عن طريق الرجوع إلى لفظ الجلالة المذكور في الآية الأولى، مفتاح السورة الذي يرتبط به ما جاء بعده وهذه.... مرجعية داخلية " (٢).

ووصف الصراط بالاستقامة يؤكّد وصول العبد إلى غايته المرجوة، ومبتغاه من إرضاء ربّه إذ سار على النهج الحق، فالطريق المستقيم لا يشتبه على سالكه فيضل، والطريق المستقيم هو أقرب الطرق إلى مرضاة الله تعالى (٣).

٢ ــ العطف:

يعدّ العطف عنصرا من عناصر الربط بين أجزاء الكلام، وتتماز السورة بتماسك نصي تام بين المعاني، لذا فلم يستعمل العطف إلاّ في سياق الآية الخامسة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، والآية السابعة ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ، لوجود جهة جامعة بين المعطوف والمعطوف عليه.

وشبه كمال الاتصال أدّى إلى وجود مورفيم الواو، لأنّ حذفها يؤدّي إلى اللبس، واقتضى السياق الربط بالواو للجمع بين هاتين الجملتين، لأنّ العبادة

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١ / ٦٠ وما بعدها، البيضا وي (ت ٧٩١ هـ)، تحقيق : عبد القادر عرفان، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان (١٤١٦ هـ = ١٩٩٦ م)، ملاك التأويل : ١/ ١٥٦/، الغرناطي (ت ٧٠٨ هـ)، تحقيق : سعيد الفلاح، ط١، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان (١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م).

(٢) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق : ١ / ٢٧٥، ٢٧٦، والقاعدة النحوية ــ تحليل ونقد / ١٢١، محمود الجاسم، ط١، دار الفكر، دمشق (٢٠٠٧ م).

(٣) من بلاغة النظم القرآني / ٥٢، د. بسيوني عبد الفتاح فيّود، ط١، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة (١٩٩٢ م).

غيرالاستعانة، والاستعانة غير العبادة، ولكن جمع بينهما لكونهما موجّهتين إلى الله تعالى من عباده المؤمنين، هذا فيما يخصّ الآية الخامسة، أمّا في الآية السابعة فقد أسهم المكوّن الربطي (الواو) في الجمع بين صفتين، من صفات الذين أنعم الله عليهم، والصفة الأولى متقاربة من الثانية، فعدم الغضب يكون من الله تعالى، والهداية كذلك من الله والصفتان لموصوف واحد يتمثّل في الذين أنعم الله عليهم(١).

ولعلّ السياق اقتضى الربط بالواو لمغايرة المغضوبين عليهم من الضّالّين، واقتران " (لا) بحرف العطف (الواو) من غير تقدّم نفي فإنّ الذي جوّز ما في (غير) من معنى النفي، ومن ثم جاء مع المعطوف عليها "(٢).

وتكرار(لا) في قوله تعالى:﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ دليل على تغاير الطائفتين، لأنّ المغضوب عليهم صفة اليهود في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾(٣)، والضلال صفة النصارى، لاختلاف أقوالهم الفاسدة في عيسى عليه السلام، ولقول الله فيهم(٤):﴿ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾(٥).

وورد التعبير القرآني باستعمال (غير) مع المغضوب عليهم، من دون (لا)، لأنّ (لا) يعطف بها بعد الإيجاب، كما تقول: جاءني زيد لا عمرو، وأمّا

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق : ١ / ٢٧٣.
(٢) التوابع من خلال القرآن القرآن الكريم / ٨٧، د. هادي نهر ، ط١، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء (١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٣ م).
(٣) الآية ١١٢ من سورة آل عمران (٣).
(٤) معترك الأقران : ٢ / ٣٠٢، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق : أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان (١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م)، وشرح جمل الزجاجي :٢ / ٤٤، ابن عصفور الإشبيلي (ت ٦٦٩ هـ)، تحقيق : د. أنيس بريوي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت (٢٠٠٣ م).
(٥) الآية ٧٧ من سورة المائدة (٥).

(غير) فهي تابع لما قبلها، وهي صفة ليس إلاّ، ولم يصرّح التعبير القرآني بذكر أسماء اليهود والنصارى مع أنّهم هم الموصوفون بذلك تجريدا لوصفهم بالمغضوب عليهم والضالين الذي به غايروا المنعم عليهم، ولم يكونوا بذلك منهم بسبيل، لأنّ الإنعام المطلق ينافي الغضب والضلال، فلا يثبت لمغضوب عليه ولا ضال [١]، و(لا) زائدة للتوكيد عند البصريين، وبمعنى (غير) عند الكوفيين، أي لتوكيد النفي المفاد من غير [٢]، وقيل : "دخلت..... مزيلة لتوهّم متوهّم أنّ الضّالّين هم المغضوب عليهم، والعرب تنعت بالواو، يقولون : مررت بالظريف والعاقل، فدخلت (لا) مزيلة لهذا التوهّم، ومعلمة أنّ الضّالّين هم غير المغضوب عليهم " [٣]، وذكر بعض اللغويين أنّه لم يكرّر استعمال (غير) في (الضّالّين)، لأنّ (لا) أقلّ حروفا، ولتفادي تكرار اللفظ، والثقل الحاصل بالنطق بـ (غير) مرّتين، والآيتان بها مؤذن بنفي الغضب عن أصحاب الصراط المستقيم كما نفى عنهم الضلال وغيره[٤].إذن فالواو ربط بين المعنيين وساهم في تحقيق التماسك الدلالي بين آيات السورة التي تتميّز بالربط والانسجام من حيث المضمون والدلالة.

(١) بدائع الفوائد : ٢ /٢٠٥، ابن قيّم الجوزية (ت ٧٥١ هـ)، تحقيق : أحمد عبد السلام، ط١، دار الكتب العلمية ،بيروت، لبنان (١٤١٤ هـ = ١٩٩٩ م)، وتفسير سورة الفاتحة / ٢٢٤، ٢٢٥، ابن قيّم الجوزية، تحقيق : يوسف عمر، ط١، دار المنهاج للنشر (١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٦ م).

(٢) إعراب القرآن : ١ / ٢٢، النحّاس (ت ٣٣٨ هـ)، تحقيق : عبد المنعم خليل، ط٣، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان (٢٠٠٩ م)، وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن / ١٨، أبو زكريا الأنصاري، ط١، مكتبة الصابوني (١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م).

(٣) الصاحبي / ٢٦٢، ٢٥٩، أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ)، تحقيق : أحمد صقر ،مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة (١٩٧٧ م).

(٤) بدائع الفوائد : ٢ / ٢١٤، وتفسير سورة الفاتحة / ٢٣٩.

٣ ــ البدل:

من المعروف أنّ البدل هو المبدل منه في المعنى غالبا، ولشدّة هذا التماسك بينهما استغنى عن الأداة اللفظية (الرابطة)، إذ إنّ الربط بينهما دلالي يسهم في تحقيق التماسك على مستوى أكثر من آية في السورة، ويمثّل البدل كذلك المرجعية السابقة في ضوء التماسك، ويمكن توضيح ذلك على النحو الآتي:

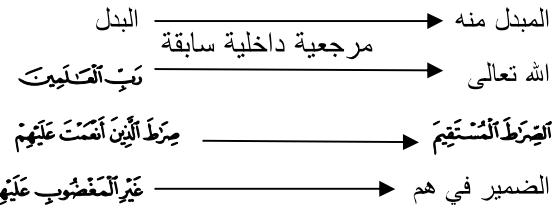

فالتماسك ناشئ من وجود التماسك المعنوي بين عنصري البدل ووجود المرجعية السابقة، وهذا على عكس علاقة العطف التي تكتفي بكونها جامعة فقط بين المعطوف والمعطوف عليه(١)، ولعلّ لشدّة التماسك بين المعاني نجد استعمال البدل المطابق في قوله تعالى :﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فالصراط الثاني بدل من الصراط الأول، لأنّ الصراط المستقيم هو صراط المنعم عليهم، ولأنّ البدل هو المبدل منه، وان هذا النوع من البدل لا يتّصل بضمير عائد على المبدل منه، إذ يمكن أن يحلّ محلّ الأول، ولهذا يستوي هذا النوع من البدل مع عطف البيان(٢).

وورود نسق الآية باسلوب الإبدال في حكم تكرير العامل، كأنّه قيل: اهدنا الصراط المستقيم اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم، وفائدته التوكيد لما فيه من

---

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق : ١ / ٢٢٣٩.

(٢) ينظر: كشف المشكل في النحو / ١٩٦، حيدرة اليمني (ت ٥٩٩ هـ)، تحقيق : يحيى مراد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٤ م)، وبناء الجملة العربية / ١٨٨، د.محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة (٢٠٠٣ م).

التثنية والتكرير والإشعار بأنّ الطريق المستقيم بيانه وتفسيره : صراط المسلمين، ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده، وكذلك ما في نسق الإبدال من الإجمال المعقّب بالتفصيل، ليتمكّن معنى الصراط للمطلوب فضل تمكّن في نفوس المؤمنين الذين يلقنون هذا الدعاء في كلّ ركعة من صلاتهم فيكون له من الفائدة مثل ما في التوكيد المعنوي[١]، وهذا يتناسب مع الموضوع، لأنّ الآية وردت في سياق الحديث عن التعليم للعباد، وحق الداعي أن يستشعر عند دعائه ما يجب عليه اعتقاده ممّا لا يتمّ الإيمان إلاّ به، ومن ثم جاء الطلب للهداية والرغبة فيها مشوبا بالخير تصريحا من الداعي بمعتقده وتوسّلا أو إلحاحا منه بذلك الاعتقاد الصحيح الصائب إلى ربّه، فكأنّه متوسّل إليه بإيمانه وباعتقاده[٢].

ووقع البدل في قوله تعالى : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ، و (غير) اسم مبهم إلاَ أنّه أعرب للزومه الإضافة وخفضه على البدل من الاسم الموصول (الذين) على معنى أنّ المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله والضلال [٣]، وكأنّه قال : صراط غير المغضوب عليهم، ويجوز كون (غير) صفة لـــ (الذين)، وإن كان (غير) أصله في الكلام صفة للنكرة، تقول : مررت، كما تقول : مررت برجل ليس بك، وإنّما وقع صفة للذين، لأنّ (الذين) ههنا ليس بمقصود قصدهم، فهو بمنزلة قولك :إنّي لأمر بالرجل فأكرمه، والصفة هذه إمّا مبنية للموصول، وإمّا مقيّدة له [٤].

---

(١) الكشّاف : ١ / ٢٥، الزمخشري (ت ٥٣٨ هـــ)، تحقيق : محمد شاهين، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٤٢٤ هـــ = ٢٠٠٣ م)، والتحرير والتنوير : ١ / ١٨٩.

(٢) تفسير سورة الفاتحة /٢٠٨، وبدائع الفوائد : ٢ / ١٩٥.

(٣) إعراب القرآن : ١ / ٧٢.

(٤) معاني القرآن وإعرابه : ١ / ٥٧، الزجّاج (ت ٣١١ هـــ)، تحقيق : د. عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة (١٤٢٦ هـــ = ٢٠٠٥ م)، و الكشاف : ١ / ٢٦.

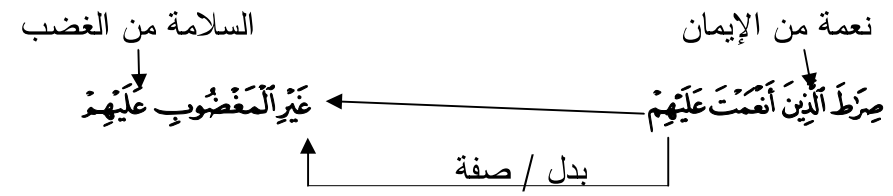

يتّضح ممّا تقدّم : هيمنة استعمال التوابع من بين الأساليب النحوية في تراكيب السورة، لاقتضاء السياق استعمال التوابع ولا سيّما الصفة، لأنّ بعد ذكر الحمد آثر التعبير القرآني ذكر الصفات الخاصة بالعليّ القدير، حتّى يؤكّد أنّه مستحقّ لهذا الثناء، ثم وصف الصراط أيضا بصفات، فضلا عن استعمال العطف، والبدل..... وقد ساهم استعمال التوابع في تحقيق التماسك النصي بين آيات السورة بنسق فني، لأنّ الآيات تتعلّق بعضها ببعض، إلى جانب وجود العديد من المزايا البلاغية والتركيبية لهذه الاستعمالات.

نسق الإضافة:

تسهم الإضافة قي تشكيل آيات السورة وتراكيبها، منها ورودها في قوله تعالى: ﴿ ٱلحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلعَٰلَمِينَ ﴾، فـ (رب)، مخفوض على الصفة (لله) وخفض بالإضافة وعلامة الخفض الياء، لأنّها من جنس الكسرة، وسرّ إضافة الربوبية إلى أنّ لفظ الجلالة هو تأنيس المخاطبين لما تعطيه حضرة الإلوهية من الأحكام المتضادة الظاهرة والمغيبة، وما يلازمها من فرط جلال الهيبة والعظمة بخلاف الربوبية المستلزمة للشفقة، وحسن الاشتمال على المربوبين بالتربية والإصلاح وما إليهما، ولعلّ سرّ الشمول بالإضافة للتشويق أي لفتح باب مطامع الكل فيه إذا أطاعوا، وليبرهنوا أيضا بأجمعهم إذا أفرطوا وقصّروا للمعنى المدرج في قوله تعالى : ﴿ مَٰلِكِ يَومِ ٱلدِّينِ ﴾ وهو المجازاة [١].

(١) إعراب القرآن : ١ / ١٨، وإعجاز القرآن في تفسير أم القرآن / ٢٩٨، صدر الدين القونوي (ت ٦٧٣ هـ) ،تحقيق : د. عاصم إبراهيم، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت،

واقتضى اسم الفاعل (مالك) إضافته إلى الظرف (يوم)، ثم أضيف (يوم) إلى الدين، لبيان صاحب هذه الملكية المطلقة في قوله تعالى:﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، وتخصيص (اليوم) بالإضافة إمّا لتعظيمه، أو لتفرّده تعالى بنفوذ الأمر فيه[1] ، أو للسعة والشمول، لأنّ إضافة اسم الفاعل إلى الظرف تكون على طريق الاتّساع [2].

ويلحظ إضافة (الصراط) إلى الموصول المبهم من دون أن يقول : صراط النبيين والمرسلين في قوله تعالى:﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ وفي ذلك حكمة كثيرة، منها:

إحضار العلم وإشعار الذهن عند سماع هذا، لأنّ استحقاق كونهم من المنعم عليهم هو بهدايتهم إلى الصراط فيه، صاروا من أهل النعمة، وهذا كمايعلّق الحكم بالصلة من دون الاسم الجامد لما فيه من الإنعام باستحقاق ما علّق عليها من الحكم بها، وفيه إشارة إلى أنّ نفي التقليد عن القلب واستشعار العلم بأنّ من هدى إلى هذا الصراط فقد أنعم عليه تعالى بفضله، فالسائل مستشعر سؤال الهداية وطلب الإنعام من الله تعالى عليه، وأنّ الآية عامّة في طبقات المنعم عليهم جميعا، ولو أتى باسم خاص فلن يكون فيه سؤال الهداية إلى صراط جميع المنعم عليهم [3].

ووردت إضافة (غير) إلى ما لم يسمّ فاعله (المغضوب)، لأنّ غير اسم مبهم لا بدّ من إضافته، ويمكن ترسيم النسق الإضافي في المخطط الآتي :

لبنان (١٤٢٦ هـ = ٢٠٠٥ م)، ونظريات الإعجاز القرآني / ٦٠، أحمد رحماني، ط ١، مكتبة وهبة، القاهرة (١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م).

(١) مشكل إعراب القرآن : ١ / ٦٨، أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١ / ٥٩.

(٢) الكشاف : ١ / ٢٢.

(٣) بدائع الفوائد : ١ / ٢٠٠، ٢٠١، و إعراب القرآن : ١ / ٢١.

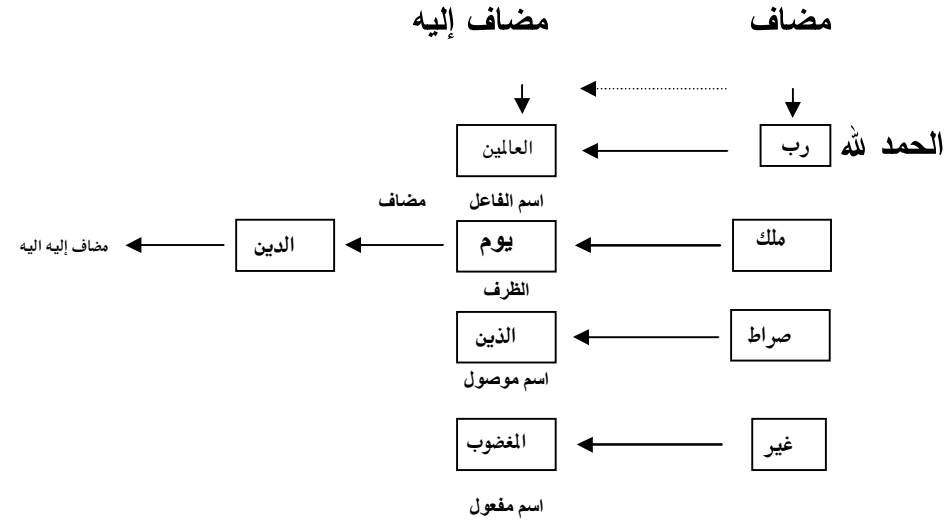

وجاء البناء للمفعول على النسق المعهود في القرآن الكريم، أي أن أفعال الإحسان والجود والرحمة تضاف إلى الله سبحانه وتعالى، فيذكر فعلها منسوبة إليه، ولا يبنى الفعل معها للمفعول كما في قوله تعالى:﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ، أمّا إذا جئ بأفعال العدل والجزاء والعقوبة فحذف الفاعل وبني الفعل معها للمفعول تلطّفا في التعبير القرآني [١].

ثانياً : الأنساق التركيبية الثنائية

تسهم الأنساق التركيبية الثنائية في تشكيل بعض تراكيب السورة، كما أسهمت الأنساق الأحادية، فمن أهم هذه الأنساق : ١ ــ الثبوت والحدوث

يعدّ الثبوت من سمات الجمل الاسمية، والحدوث من سمات الجمل الفعلية[٢]، ويلحظ استعمالهما في تراكيب السورة، إذ يمكن بيان نسبة ورودهما من خلال الجدول الآتي:

(١) بدائع الفوائد : ١ / ٢٠٠، ٢٠١.

(٢) ينظر: مبادئ أساسية في فهم الجملة العربية / ٦٣ وما بعدها، د. أيمن عبد الرزاق، ط١، دار اقرأ، بيروت، لبنان (١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م).

ت	الجملة الكبرى	نوعها	الجملة الصغرى	نوعها
١	بسم الله الرحمن الرحيم	اسميّة		
٢	الحمد لله ربّ العالمين	=	الحمد لله	اسمية
٣	الرحمن الرحيم	=		
٤	مالك يوم الدين	=		
٥	إيّاك نعبد وإيّاك نستعين	=	نعبد	فعلية
			نستعين	=
٦	اهدنا الصراط المستقيم	فعلية	اهدنا	=
٧	صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين	اسمية	أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم	فعلية اسمية

تتّضح من هذا الجدول هيمنة الجمل الاسمية في السورة أكثر من الجمل الفعلية إذ لا نجد استعمال الجمل الفعلية حتى الآية الخامسة، ووردت أربعة أفعال في السورة (نعبد، نستعين، اهدنا، أنعمت).

ويتناسب الثبوت مع مضمون السورة، فالآية الأولى:﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾تدلّ على ثبوت هاتين الصفتين لله تعالى منذ الأزل، والآية الثانية أيضا تدلّ على " الديدن الثابت في قلوبنا وعلى ألسنتنا"[١]، وتحتمل الآية الكريمة الخبر والإنشاء، الإخبار بأنّ الحمد ثابت لله استحقاقا كما تقول المال لزيد، وتحتمل

(١) النيابة النحوية من خلال القرآن الكريم / ٢٤، د. هادي نهر ، ط١، مركز عبادي للطباعة والنشر (١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢ م).

الإنشاء، لأنّها تدلّ على التعظيم، والآية الثالثة توكيد لإثبات صفة الرحمة لله عزّ وجل، والآية الرابعة أيضا تدلّ على ثبوت الملكية لله تعالى منذ الخلق[١]، في حين تدلّ الأفعال على التجدّد والحدوث في الآيات الخامسة والسادسة والسابعة، لأنّ الهداية والعبادة والاستعانة تقتضي الحدوث والتجدّد تارة بعد أخرى.

التقديم والتأخير

عنصران من عناصر السياق في تراكيب القرآن الكريم، ويستعملان بصورة معجزة في رصف الكلمات، فيلحظ أنّه يقدّم تارة، ويؤخّر تارة أخرى لأغراض لفظية ومعنوية، وقد ورد في السورة في قوله تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فتقديم الضمير المنفصل (إيّاك) الواقع موقع المفعول على الفعل (نعبد) مرة، وعلى (نستعين) يفيد الاختصاص والحصر عن طريق القصر أي قصر العبادة والاستعانة على الله تعالى قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً تحقيقياً في قوله تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، وقصراً حقيقياً غير تحقيقي في قوله تعالى :﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، لأنّه قد يستعان بغير الله تعالى[٢]، والمعنى نخصّك بالعبادة ولا نعبد غيرك، ونخصّك بالاستعانة، ولو كان التعبير (نعبدك ونستعينك)، لم يفد هذا المعنى، وإنّما يحتمل أن يشرك الإنسان أحدا مع الله تعالى في العبادة والاستعانة، لذا فالتعبير القرآني أبلغ وأقوى في السياق المذكور[٣].

---

(١) الجملة العربية والمعنى / ١٩١، د. فاضل السامرائي، دار ابن حزم، ط١، (١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م)، التوابع في القرآن الكريم / ٢١.

(٢) الطراز : ٢ / ٣٧، ٣٨ وما بعدها، يحيى العلوي، تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي، ط ١، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان (١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢ م)، وينظر : البرهان في متشابه القرآن / ١٠٠، الكرماني (ت بعد ٥٠٠ هـ)، تحقيق : محمد عزالدين، ط ٢، دار الوفاء للنشر، المنصورة (١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م).

(٣) الجملة العربية تأليفها وأقسامها / ٤٣، د. فاضل السامرائي، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد (١٤١٩ هـ = ١٩٩٨ م).

وهناك نوع آخر من التقديم والتأخير لا يرجع إلى تقديم أحد ركني الإسناد على الآخر، بل هو مختصّ بدرجة التقديم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك، والأمثلة كثيرة على هذا النوع من التقديم في السورة منها : تقديم العبادة على الاستعانة في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، لأنّ تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة لتستوجبوا الإجابة إليها بصورة أسرع[1]، وهذا ما يسمّى بـ (تقديم السبب على المسبّب) [2]، وقيل : إنّ " ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ قسم الرب،... ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قسم العبد، لأنّ الاستعانة جزء من العبادة، من غير عكس، ولأنّ الاستعانة طلب منه، والعبادة طلب له " [3].

وقدّم الرحمن على الرحيم، لأنّه " لما كانت رحمته في الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين، قدّم الرحمن، وفي الآخرة دائمة لأهل الجنّة لا تنقطع، قيل : الرحيم ثانيا، ولذلك يقال : رحمن الدنيا والآخرة "[4]، إذن فهذا التقديم يدلّ على بيان كمال ربوبيّته بالرحمة لعباده المربوبين، إشارة إلى الرحمة في المعاد يوم الجزاء عند الإنعام بالملك المؤبّد في مقابلة كلمة وعبادة.

وقدّم ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ على ﴿ الضَّالِّينَ ﴾ لأسباب منها : أنّهم متقدّمون عليهم بالزمان، وأنّهم كانوا هم الذين يلون أهل النبي (صلّى الله عليه وسلّم) من أهل الكتابين فإنّهم كانوا أهل جيرانه في المدينة والنصارى كانت ديارهم نائية عنه وإنّ اليهود أغلظ من النصارى، ولهذا كان الغضب أخصّ بهم واللعنة والعقوبة كذلك، وانّه تقدّم ذكر المنعم عليهم موازنة باليهود، والغضب

(١) الكشاف : ١ / ٢٤، وينظر : البيان في روائع القرآن : ٢ / ١٠٧، د. تمّام حسّان، ط٢، عالم الكتب، القاهرة (١٤٢٠ هـ = ٢٠٠٠ م).

(٢) علم المعاني / ١٢٣، د. عبد العزيز عتيق، دار الآفاق العربية، القاهرة (١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٤ م)

(٣) حول تفسير سورة الفاتحة / ١٢٥ وما بعدها.

(٤) كشف المعاني في متشابه المثاني / ٥٢.

ضدّ الإنعام والسورة هي السبع المثاني التي يذكر فيها الشيء ومقابله، فذكر المغضوب عليهم مع المنعم عليه فيه من الازدواج والمقابلة ما ليس في تقديم الضّالّين[١]، فضلا عن التناسب والتناسق مع فواصل السورة، ممّا أدّى " إلى انسجام صوتي وتناسق جميل يبعث على الدهشة والإعجاب " [٢]، وهذا يعني أنّ السياق يفرض نوعا من الترتيب في رصف الكلمات داخل التركيب القرآني بأليق صورة وأنسبها.

المبحث الرابع : بنية النسق الدلالي والتداولي

يتناول هذا المبحث بنية الأنساق الدلالية والتداولية لسورة الفاتحة منطلقا من الوحدات الدلالية لتلك الأنساق الموحية بدلالات نابعة من قلب المؤمن، وتسهم هذه الأنساق في تشكيل وحدات دلالية متماسكة، ومن هذه الأنساق :

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾

تمثّل لفظة (الحمد) البنية الدلالية المركزية في السورة، والحمد لله يعني " الشكر خالصا لله جلّ ثناؤه دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كلّ ما يرى من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ولا يحيط بعددها غيره أحد "[٣]، والحمد وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، ولابدّ من قيد المحبة، لأنّ مجرّد وصفه بالكمال من دون محبة ولا تعظيم لا يسمّى حمدا، وإنّما يسمّى مدحا، ووقع بعد التسمية في أول كتابه الكريم إيماء بأنّ كل أمر ذي بال يحتاج في أوله إلى الابتداء بهما[٤].

---

(١) جواهر القرآن / ٧٠، أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)، المكتبة العصرية، بيروت (١٤٢٧ هـ =٢٠٠٦ م)، وبدائع الفوائد : ٢ / ٢١٢.

(٢) نظريات الإعجاز القرآني / ٧٧.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن / ١ / ٦٩، وينظر : خواطر من تأمّل لغة القرآن الكريم / ٧٢.

(٤) تفسير جزء عمّ /١٠، محمد بن صالح، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٣ م)، وتيجان البيان في مشكلات القرآن / ٥٤.

إذن فالحمد لله وحدتان دلاليتان متماسكتان تعبّران عن " الشعور الذي يفيض به قلب المؤمن بمجرّد ذكره لله، ووجودهما ابتداء ليس إلاّ فيضا من فيوضات النعمة الإلهية التي تتجيّش الحمد والثناء في كل لمحة ولحظة وخطوة تتوالى آلاء الله تعالى وتتواكب وتتجمّع وتغمر خلائقه كلها "[١].

﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يستعمل (رب) في اللغة العربية بدلالات متعدّدة منها : الإله، والسيّد، والمالك للشيء، والمصلح للأمر، والانضمام، والتجمع، والعلو، والسيادة ،.... ودلالات أخرى[٢] بيد أنّ الأرجح هو معنى الإله، لاختصاصه بالله تعالى، لأنّ المعاني الأخرى كلها تندرج ضمنه[٣].

﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

وحدتان دلاليتان تقتضي إحداهما الأخرى، الرحمان على وزن فعلان من (رحم)، والرحيم فعيل منه [٤]، وجمع سبحانه لذاته الوصفين، لأنّه لو اقتصر على رحمان لظنّ ظانّ أنّ هذه الصفة طارئة قد تزول مثل عطشان وغضبان، ولو اقتصر على رحيم لظنّ ظانّ أنّ هذه صفة ثابتة غير متجدّدة، والجمع بينهما يوحي بأنّ رحمته ثابتة ومستمرة ودائمة لا تنقطع، ويدلّ الوصفان على المبالغة، إلاّ أنّ الرحمن أشدّ مبالغة، لأنّه أشدّ عدولا، ولدلالته على السعة والشمول، ولكونه على صيغة التثنية، والتثنية تضعيف، فكأنّ البناء تضاعفت فيه الصفة، وهذا يعني أنّ الرحمان ذو الرحمة الواسعة، والرحيم هو ذو الرحمة الواصلة[٥].

---

(١) في ظلال القرآن / ١ / ٢٢.
(٢) لسان العرب مادة (ر. ب) : ١ / ٣٩٩، ابن منظور (ت ٧١١ هـ)، دارصادر، بيروت لبنان (١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م).
(٣) معترك الأقران : ٢ / ١٨٥، وتفسير جزء عمّ / ١١.
(٤) معاني الأبنية في العربية / ٨١، د. فاضل السامرائي، ط١، دار عمّار للنشر والتوزيع، الأردن (٤٢٦ هـ = ٢٠٠٥ م).
(٥) التفسير القيّم / ٣٧، وينظر : الكشاف : ١ /١٦، والإتقان : ٢ / ١٧٩.

وقد توصّل الدكتور تمّام حسّان من خلال استقراء النص القرآني إلى أنّ اللفظين يختصّان باستعمالات خاصة تحدّد لكل منهما تواردا مع بعض الألفاظ التي لا يتوارد معها اللفظ الآخر، فعلى سبيل المثال الرحمة في الرحمان تقترن بخالق الكون في قوله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [١]،..... أمّا الرحيم فرحمته تقترن بالتوبة في قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [٢]، والرأفة والمغفرة..... ودلالات أخرى [٣]، إلاّ أنّ التعبير القرآني آثر استعمال الرحمن مع الرحيم في هذه السورة تأنيسا لقلوب عباده قبل ذكر يوم الجزاء الذي هو أشقّ يوم على العباد، وفيه رمز إلى أنّ العباد لا يخرج عن انعطاف الله سبحانه ورحمته[٤].

وهكذا فإنّ الوحدات الدلالية في الآيتين المذكورتين آنفا يربطهما تماسك دلالي وترابط معنوي على نسق فني، فالحمد اقتضى (لله) ولا يكتمل المعنى بدونه، وفي الوحدة الدلالية الثانية يلحظ ربط (رب) بـــ (العالمين)، وفي الثالثة اقترن الرحمان بالرحيم من دون عطف بينهما، لشدّة التماسك والترابط بين معنى اللفظين، وهذا يعني أنّ كل وحدة دلالية تكتمل ما قبلها، ويمكن توضيح ذلك في الترسيم الآتي :

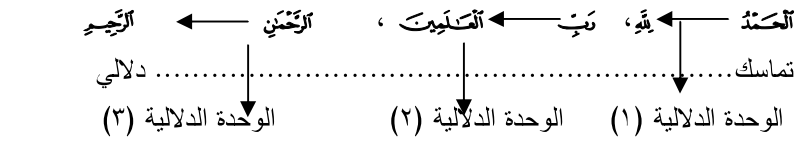

(١) الآية ٣ من سورة الملك (٦٧).
(٢) الآية ٣٧ من سورة االبقرة (٢).
(٣) ينظر في تفصيل هذه الدلالات : البيان في روائع القرآن : ١ /٢٩٤ وما بعدها.
(٤) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن /٧٠ الزملكاني، (ت ٦٥١ هـــ)، تحقيق : د. خديجة الحديثي، د. أحمد مطلوب، ط١، مطبعة العاني، بغداد (١٣٩٤ هـــ = ١٩٧٤ م).

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

المراد بـ (يوم الدين) يوم الجزاء أو يوم القيامة، والله تعالى هو مالك ذلك اليوم الذي يجازي فيه الخلائق اي جميع خلقه مع الملوك الجبابرة [١].

﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾

قرنت الاستعانة بالعبادة ليجمع بين ما يتقرّب به العباد إلى ربّهم وبين ما يطلبونه من الحاجات ويحتاجون إليه من جهته العلية، و﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾مبني على الألوهية تدفع الرياء، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ مبني على الألوهية تدفع الكبرياء[٢]، و إيّاك نعبد دليل على خضوع العبد لربّه ويقتضي حصول رتبة عظيمة للنفس بعبادة الله تعالى، وذلك يورث العجب، فأردف بقوله تعالى : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ ، للدلالة على أنّ تلك الرتبة الحاصلة بسبب العبادة لم تحصل من قوة العبد، بل حصلت بإعانة الله تعالى [٣].

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾

اهدنا دعاء لطلب الثبات على الطريق الموصل إلى الغاية أو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه [٤]، وذكروا أنّ (الصراط المستقيم) طريق بين النار والجنة، وأنّه مقام فوق النار إذ لابدّ لكل إنسان أن يجتاز عليه، ومن الناس من يمر كلمح البرق، أو كطرف العين، أو كالريح.....كل بحسب أعماله المذخورة في الدنيا[٥]، ووصفه بالاستقامة يتضمّن قربه، لأنّ الخط المستقيم هو

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ١ / ٧٦.
(٢) الكشاف : ١ / ٢٤، وتفسير سورة الفاتحة / ١٧.
(٣) مفاتيح الغيب : ١ / ٢١٧، والبرهان الكاشف عن إعجاز القرآن / ٧١.
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ١ / ٨٥، ومشكل إعراب القرآن : ١ / ٧١.
(٥) ينظر : من وحي القرآن / ١٣٢، وتفسير جزء عمّ / ١٥.

أقرب خط فاصل بين نقطتين أو أقرب خط إلى الأمان، وكلما تعوج طال وبعد فلا يوصل إليه، ونصبه ليشمل جميع الذين يمرون عليه للدلالة على السعة [١].

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾

إبانة عن الصراط المستقيم، وكأنّ الذهن طلب معرفة ما إذا كان الصراط مختصا بنا أم سلكه غيرنا ممّن هدانا الله تعالى، فالآية الكريمة تفيد التشويق والترغيب لتوكيد الدلالة وتحريض المسلمين على اتباعه، لكونه طريق السالكين والناجين[٢].

إذن فالتماسك الدلالي تام بين هذه الأنساق، فعندما وصف تعالى الصراط بالاستقامة وصف صراطه وأصبح مفهوما، لكن وصف الاستقامة بـ ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ توضيح وبيان أكثر وهذا ما يسمّى في الدراسات اللغوية بـ (الاستقصاء الدلالي)[٣].

﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

وردت هذه الوحدات الدلالية بيانا وتوضيحا للصراط المستقيم أيضا، و ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾ قيل: في سياق الخطاب مع اليهود، أمّا ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فقد قيل : في سياق الخطاب مع النصارى بدليل قوله صلّى الله عليه وسلّم: (إنّ المغضوب عليهم هم اليهود، وإنّ الضّالّين هم النصارى) "[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب : ١ / ٢٢٠، والتفسير القيّم / ١٤.
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ١ / ٨٧، والتحرير والتنوير : ١ / ١٨٨.
(٣) الإتقان : ٢ / ١٢٧.
(٤) صحيح ابن حبّان رقم الحديث ٧٢٠٦، ١٦ / ١٨٣، أبو حاتم محمد بن حبّان الخراساني (ت ٣٥٤ هـ)، تحقيق : شعيب الأرناؤوط، ط٢، دار الرسالة، بيروت، لبنان (١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م).

وجاء وصف أهل الغضب بزنة اسم المفعول، والضّالّين باسم الفاعل، لأنّ أهل الغضب من غضب الله تعالى عليهم وأصابه غضبه فهم مغضوب عليهم، أمّا أهل الضلال فهم الذين ضلّوا وآثروا الضلال واكتسبوه أي فعل فيهم(١).

الأنساق التكرارية:

تسهم الأنساق التكرارية بنوعيها (التكرار الكلي والتكرار الجزئي) في تشكيل بعض تراكيب السورة، ومن الأنماط التكرارية تكرار الألفاظ نحو تكرار لفظ الجلالة وأسمائه الحسنى نحو : (الله، الرحمن، الرحيم، لله، الرحمن، الرحيم) مع إحالة الضمائر إليه تعالى في (إيّاك، اهدنا، أنعمت) (٢).

وتكرار ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ورد لإطمئنان قلوب المسلمين، لأنّه جاء عقب هذه الآية قوله تعالى :﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾أي فيه يقع الجزاء والثواب والعقاب ، وفي ذكره يحصل المؤمن ما لامزيد عليه من الرعب والخشية، فقدّم عليه ذكر ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾إشعارا بإنّ الرحمة سابقة غالبة (٣)، وذكروا أنّ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾يتعلّق بأمر الدنيا في المرة الأولى، ويتعلّق بأمر الآخرة في المرة الثانية، لأنّه ليس في القرآن مكرّر من دون فائدة، فإن رأيت شيئا منه تكرّر من حيث الظاهر فانعم نظرك وانظر إلى سابقه ولاحقهحتّى تتكشف الفائدة، وذهبوا إلى أنّ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ليس تكرّرا لما في البسملة، بل للواحد تخصيص حكم التعميم، وللآخر تعميم حكم التخصيص...، لأنّ الرحمة رحمتان الرحمة الذاتية المطلقة وهي امتنانية وسعت كل شيء، والرحمة الأخرى هي الرحمة

(١) بدائع الفوائد : ٢ / ٢١٣، وتفسير جزء عمّ / ١٩.
(٢) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق : ٢ / ٢٤.

(٣) البرهان في متشابه القرآن / ٩٩، وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن /١٧.

الفائضة عن الرحمة الذاتية، والمنفصلة عنها بالقيود التي من جملتها الكتابة المشار إليها [١] بقوله تعالى:﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [٢]

وتكرار (إيّاك) في قوله تعالى :﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾يدلّ على تعلّق الأمور بكل واحد من الفعلين، ففي إعادة الضمير من قوّة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه، لأنّه إذا حذف في الثاني فتذهب فائدة التقديم، وهي قطع الاشتراك بين العاملين، أي إذا قال : إيّاك نعبد ونستعين فالآية تفقد جماليتها ودلالتها، ولايظهر أنّ التقدير : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، أو (إيّاك نعبد ونستعينك) [٣].

وكرّر (الصراط)، للدلالة على المكان المهيّأ للسلوك، ومن ثم أعاده لبيان وصف سالكيه من المنعم عليهم من الأنبياء والمؤمنين [٤]، وورود شبه الجملة (عليهم) مرتين لا يندرج ضمن النسق التكراري، لأنّ " كل واحد منهما متّصل بفعل غير الآخر وهو الإنعام والغضب " [٥].

والنمط الثاني من أنساق التكرار يكمن في الجمل التفسيرية، لأنّ الآيات تفسّر بعضها بعضا، وبعبارة أخرى أنّ الآيات من البسملة حتى الآية الرابعة تفسير للفظ الجلالة، وذلك عن طريق صفاته للدلالة على التواصل واستمرارية النص، ووردت الآية السادسة والسابعة في تفسير (الصراط)... وهذه الجمل التفسيرية نمط من أنماط التكرار بالمعنى لا باللفظ.

والنمط الثالث من أنماط التكرار، في هذه السورة، يتمثّل في اشتقاق الكلمات من مادة واحدة نحو اشتقاق الرحمن والرحيم من (رحم)، والنمط الرابع

(١) إعجاز البيان في تفسير أم القرآن / ١٩٥، ١٩٦.
(٢) الآية ٥٤ من سورة الأنعام (٦).
(٣) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن / ١٧، ١٨.
(٤) كشف المعاني في متشابه المثاني / ٥٢، ٥٣.
(٥) البرهان في متشابه القرآن / ٩٩ ١٠٠.

يتضمّن الترادف بين الجمل نحو: ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾و﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ، و﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ثلاث جمل تتلاقى في معنى واحد[١] .

ويرى المتمعّن أنّ النسق التكراري ورد متآزراً ومضمون السورة المقتضي لذلك، لتتميم معانيها وبيان مقاصدها وتزيين إيقاعها، ولبيان العلاقة الجدلية بين الأحداث والآيات، فضلا عن كون السورة بداية مكرّرة تفتح أفق التعرّف والثناء والدعاء في ركعات الصلاة كلها، وهذه الدلالات المشتركة لها وقعها في نفس المتلقي، إذ تنشط انفعالاته وتيقّظ انتباهه، فيكون مستعدّا لاحتضان الرسالة ويتقبّلها ويتفاعل معها.

دلالة النسق التداولي:

التداولية (pragmatic) فرع من فروع علم اللغة الحديث، يبحث في كيفية اكتشاف مقاصد المتكلم (speak intention) [٢]، أو هي قواعد خاصة تعني باستعمال الوحدات اللغوية في سياق معيّن، بحسب " الطبقات المقامية المختلفة، أي باعتبارها كلاما محدّدا، صادرا من متكلم محدّد، وموجّها إلى مخاطب محدّد بلفظ محدّد، في مقام تواصلي محدّد، لتحقيق غرض تواصلي محدّد " [٣].

وانّ اسلوب القرآن الكريم تكيّف بحسب نوعية مخاطبيه، وبحسب السياق الذي يدور فيه الخطاب مع مراعاة كون نصوصه صالحا لكل زمان ومكان، وقد وضع علماء الأصول دراسات متكاملة تناولوا فيها تداولية الخطاب القرآني، وتوصّلوا إلى أنّ القرآن الكريم خطاب معجز دليل على قائله ومبدعه، وانّه

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق : ٢ / ٢٥، ٢٦.
(٢) في اللغة والأدب / ١٧٠، زين كامل الخويسكي، ط ١، دار الوفاء، الأسكندرية (٢٠٠٤م).
(٣) التداولية عند العلماء العرب / ٢٦، د. مسعود الصحراوي، ط ١، دار الطليعة، بيروت، لبنان (٢٠٠٥ م).

بوصفه كلاما دالاّ على ذاته ودالاّ على مبدعه، يضع نفسه في قلب التواصل اللساني وقمّته على الإطلاق[١].

مبادئ المنهج التداولي:

يمكن تلمّس مبادئ التداولية المسماة بـــ (مبادئ التعاون) في تراكيب سورة الفاتحة، والمبادئ هي :

ـــ مبدأ النوعية (the maxim of quality) : يتمثّل هذا المبدأ في كون الكلام صحيحا، ولا يتحقّق هذا المبدأ في الكلام البشري مثلما يتحقّق في نصوص القرآن الكريم.

ـــ مبدأ الكمية (the maxim of quantity) : ينصّ هذا المبدأ على أنّ الخطاب يجب أن يكون دالاّ على المطلوب، ويكون مناسبا مع هدف الحوار وغرضه.

ـــ مبدأ الترابط (the maxim of relevance) : يعني بمناسبة الحديث للموضوع العام (الحوار)، ويؤكّد هذا المبدأ بكون الكلام ذي دلالات مباشرة[٢]، وقد يستهان بهذا المبدأ إذا ورد الكلام باسلوب غير مباشر كما ورد في قوله تعالى ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم ﴾ بدلالة غير مباشرة للتلطّف في التعبير القرآني، وذلك بإضافة النعم إليه من دون الغضب أي لم يقل : غير الذين غضبت عليهم، كما قال تعالى : ﴿ أَنعَمتَ عَلَيهِم ﴾، وهذا من باب التلطّف والتأدّب من السائل في حال السؤال[٣].

---

(١) دينامية النص ـــ تنظير وإنجاز / ١٩٦، د. محمد مفتاح، ط ٢، المركز الثقافي العربـــي، الدار البيضاء ١٩٩٠ م)، إعادة قراءة القرآن / ١٩، جـــاك بيـــرك، ترجمـــة : منـــذر عياشي، ط١، مركز الإنماء الحضاري، سورية (٢٠٠٥ م).

(٢) مدخل إلى اللسانيات / ٩٨، وما بعدها، د. محمد محمد يونس، ط١، دار الكتاب الجديـــد، طرابلس (٢٠٠٤ م).

(٣) كشف المعاني في متشابه المثاني / ٥٢، ٥٣.

ــ مبدأ الهيأة (the maxim of quantity) : نجد جذور هذا المبدأ في السورة، لكونها واضحة ولخلوّها من الغموض والإبهام واللبس مع الإيجاز فيها[١]، والسورة على الرغم من إيجازها احتوت على بيان مقاصد القرآن وهي تقرير علوم أربعة :

علم الأصول مداره معرفة الله وصفاته، وإليه الإشارة بـ (الرحمن الرحيم...ربّ العالمين)، ومعرفة النبوّات وإليه الإشارة بـ ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم ﴾ومعرفة المعاد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَومِ ٱلدِّينِ ﴾وعلم العبادات وإليه الإشارة بقوله تعالى :﴿ إِيَّاكَ نَعبُدُ ﴾، وعلم السلوك وهو حمل النفس على آداب الشرعية والانقياد لربّ البرية، وإليه الإشارة بقوله تعالى :﴿ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ ٱهدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلمُستَقِيمَ ﴾ ، وعلم القصص المعني بالاطلاع على أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية، وإليه الإشارة[٢] بقوله تعالى : ﴿ غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ إذن " فنبّه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن وهذا هو الغاية في (براعة الاستهلال) مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة "[٣]، واستهلال السورة بحمد الله عزّ وجل بيان ودليل على قدرته في التصرّف بأمور الكون كله، فهذه الافتتاحية تقدّم بحدّ ذاتها بين يدي القارئ وجبة إيمانية موضوعية بخصوص قدرة الله في الخلق فهي تعطي الراحة النفسية والطمأنينة للنفوس المؤمنة[٤]، ولاحتواء هذه السورة على مقاصد القرآن، ذكروا

(١) استراتيجيات الخطاب / ٩٤ وما بعدها، د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط١، دار الكتاب الجديد، بنغازي، ليبيا (٢٠٠٤ م).
(٢) مفاتيح الغيب : ١ / ١٥٦، والإتقان : ٢ / ٢١١، ٢١٢، و ٣٧٤، ٣٧٥.
(٣) معترك الأقران ١ / ٦١.
(٤) نظرية السياق القرآني /٣٥٣، د. المثنّى عبد الفتاح، ط١، دار وائل للنشر، عمّان الأردن (١٤٢٩ هـ = ٢٠٠٨ م).

أنّ القرآن مفصّل للإجمال الكائن في سورة الفاتحة، فقوله تعالى : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ مجمل تفصّله ثلاث آيات في سورة الانفطار قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾ (١)، وقوله تعالى : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾مفصّل بقوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ (٢)، وهذا ما يسمّى بالإجمال والتفصيل وكلاهما يحقّق المرجعية الخلفية بتكرار الدلالة والألفاظ عن طريق الإجمال في الفاتحة والتفصيل في السور الأخرى(٣).

وذهب السيوطي (ت ٩١١ هـ) إلى أنّ كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها وشرح لها، وعلى هذا فإنّ سورة البقرة تفصيل لجميع مجملات الفاتحة فمثلا قوله تعالى :﴿ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (٤)، في سورة البقرة تفصيل لقوله تعالى : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾في سورة الفاتحة، فضلا عن اختتام السورتين بالدعاء للمؤمنين بألاّ يسلك بهم طريق المغضوب عليهم ولا الضالين مجملا في سورة الفاتحة ومفصّلا في سورة البقرة (٥).

وجلّ ما تقدّم يندرج ضمن مبدأ الترابط أي ترابط أجزاء النص وتماسكها وتعلّق بعضها ببعض، وهذا ما يسمّى في الاصطلاح النقدي بـ (الوحدة العضوية)، التي نجد عناصرها الثلاثة في السورة وهي : براعة الاستهلال،

(١) الآيات ١٧ ــ ١٩ من سورة الانفطار (٧٢).
(٢) الآية (١) من سورة النساء (٤).
(٣) معترك الأقران : ١ / ١٦٥، ١٦٦، وعلم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق : ٢ / ١٨١، ١٨٢.
(٤) الآية ١٤٢ من سورة البقرة (٢).
(٥) ينظر في تفصيل ذلك : أسرار ترتيب القرآن / ٧٨ وما بعدها، السيوطي، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا، ط٢، دار الاعتصام، القاهرة (١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨ م).

وحسن التخلّص من غرض إلى آخر، وحسن الخاتمة[١].، وهذا يعني أنّ نسق أسلوب الفاتحة قدّم للمنشئين قواعد مهمة ينبغي اتّباعها في المقدّمة منها : الإيجاز، وبيان المراد، والافتتاح بحمد الله تعالى[٢].

والتداولية تقدّم تفسيرا صريحا لمقدرة المتكلم على أنّه يعني أكثر ممّا يعبّر عنه بالمعنى الحقيقي للألفاظ المستعملة، وهذا ما يسمّى بمفهوم القصدية أو الفعل اللغوي غير المباشر، ويحدّد القصد من خلال السياق بعناصره الكثيرة في الخطاب لتجسيد معنى المرسل بدلا من التقيّد بالمعنى اللغوي البحت[٣].

وتحمل آيات هذه السورة دلالات تداولية إلى جانب دلالاتها المباشرة، فقوله تعالى:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ردّ " على المغضوب عليهم ومنهم اليهود الذين يدعون أنّ الله ربّ بني إسرائيل خاصّة، وليس ربّ الخلق الآخرين من البشر فردّ عليهم بقوله: إنّه ربّ العالمين جميعا من سائر البشر والمكلّفين "[٤] ، ومعناه الأمر والتقدير: قولوا:(الحمد لله)، والله أعلم، والعالمين إشارة إلى أنّ كل ما سوى الله تعالى فهو مفتقر إليه محتاج في وجوده إلى إيجاده، وفي بقائه إلى إبقائه، ولم يستعمل التعبير القرآني (خالق العالمين)، للتنبيه على أنّ جميع العالمين مفتقر إليه[٥].

والنسق التداولي للآية الثانية ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾يكمن في أنّها جواب لـ ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾بمعنى أنّ ربوبية الله عزّ وجل مبنية على الرحمة الواسعة للخلق الواصلة، لأنّ الله تعالى عندما قال : ربّ العالمين ربّما يسأل سائل عن

(١) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية / ٨٩، ٩٠، د. مجيد عبد الحميد ناجي، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان (١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م).
(٢) التحرير والتنوير : ١ / ١٥٠، ١٥١.
(٣) استراتيجيات الخطاب / ٧٨، والتداولية عند العلماء العرب / ٧٨.
(٤) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل / ٢٣.
(٥) البحر المحيط : ١ /١٣١، وينظر : مفاتيح الغيب : ١ / ١٦١.

نوع هذه الربوبية من حيث ربوبية رحمة وإنعام، أو ربوبية أخذ وانتقام، ولذلك قال تعالى:﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، للدلالة على الاعتناء والتكريم أي تلطّفا لعباده وأمنهم عند خوفهم وإشفاقهم من عرض أعمالهم وحسابهم(١).

وقوله تعالى : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ فيه تنبيه إلى المعاد والجزاء وتنبيه إلى إحسان العمل، لأنّه يجازي عليه(٢).، وفيه موقف تمجيد العبد لربّه تعالى كما ورد في قوله صلّى الله عليه وسلّم : (فإذا قال العبد ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ قال الله تعالى:مجدني عبدي) (٣).

وفي النسق التداولي لقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ هناك القصد بالخبر لإفادة المخاطب، وللدلالة على الدعاء والطلب بمعنى : اعنّا على عبادتك، كما أنّ المعنى في استغفر الله : اللهم اغفر(٤)، " فالأوّل تبرّؤ من الشرك، والثاني تبرّؤ من الحول والقوّة، والتعويض إلى الله عزّ وجل " (٥)، ونسق تلاوة القرآن يدلّ على أنّ المضمر هو الفعل للدلالة على أنّ الأمر بتقدير قولوا: (٦)﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ .

وفي قوله تعالى : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾أمر مجازي يدلّ على الدوام والاستمرار بمعنى ثبّتنا عليه، على طريق الاستعارة التصريحية، إذ شبه الدين بالصراط بجامع التوصيل إلى الهدف في كل منهما، وحذف المشبه وأبقى المشبه

(١) ملاك التأويل : ١ / ١٦٩، ١٧٠، وتفسير جزء عمّ / ١٢.
(٢) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن / ٧١، وجواهر القرآن / ٧٠.
(٣) صحيح المسلم رقم الحديث ٨٧٦، / ٢١٠، مسلم بن الحجّاج النيسابوري (ت٢٦١ هـ)، تحقيق : خليل مأمون، دار المعرفة، بيروت (١٤٢٨ هـ = ٢٠٠٧ م).
(٤) الصاحبي / ٢٩١، والإتقان : ١ / ١٣١.
(٥) تفسير القرآن العظيم : ١ / ١٢٨.
(٦) ينظر : مفاتيح الغيب : ١ /٢١٧ وما بعدها.

به، والقرينة طلب الهداية من الله، ولفظة مستقيم تناسب الطريق ولهذا تكون الاستعارة مرشّحة[١]، وفي ضمن هذا الدعاء المهم الإخبار بفائدتين " إحداهما فائدة الخبر أي الإخبار بالاستقامة وانه الصراط المستقيم الذي نصبه لأهل نعمته وكرامته، والثانية فائدة لازم الخبر، أي إقرار الداعي بذلك وتصديقه وتوسّله بهذا الإقرار إلى ربّه "[٢].

والبعد التداولي لقوله تعالى : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ يتضمّن ردّا على الرافضة ووجه تضمّنه إبطال قولهم : انّه سبحانه قسّم الناس على ثلاث فرق: أهل الطاعة وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿ أَنعَمتَ عَلَيهِم ﴾، وأهل المعصية وإليهم الإشارة بقوله تعالى:﴿ غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم ﴾، وأهل الجهل في دين الله والكفر وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

أهل الطاعة ← ﴿ أَنعَمتَ عَلَيهِم ﴾
أهل المعصية ← ﴿ غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم ﴾
أهل الجهل ← ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

ولعلّ التعبير القرآني لم يصرّح بذكر أسماء اليهود والنصارى لعدم استحقاق ذكر اسم هؤلاء في مفتتح كتابه الكريم.

وتتضمّن الآية المقابلة بين الهداية والنعمة، والغضب والضلال، بمعنى أنّه ذكر المغضوب عليهم ولا الضّالّين في مقابلة المهتدين والمنعم عليهم[٣]، ويمكن تلمّس النسق التداولي المبني على الاقتضاء والاستلزام في تفسير ابن القيّم

(١) الطراز : ١ / ١٠٤ وما بعدها.
(٢) بدائع الفوائد : ٢ / ١٩٥.
(٣) مفاتيح الغيب ١ / ٢٢٣، والتفسير القيّم / ١٧، ١٨.

الجوزية (ت ٧٥١ هـ) لهذه الآية إذ قال:"الغضب عليهم مستلزم لضلالهم، وذكر الضّالّين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم، فإنّ من ضلّ استحقّ العقوبة التي هي موجب ضلالة وغضب الله عليه، فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام، واقتضاه أكمل اقتضاء، في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة، وحذفه في أهل الغضب، وإسناد الفعل إلى السبب في أهل الضلال " [١].

يتراءى ممّا تقدّم وجود الأنساق التداولية ومبادئها في تراكيب سورة الفاتحة، إذ أضفت عليها دلالات هامشية فضلا عن بيان الاستلزامات والاقتضاءات المحتملة فيها.

(١) التفسير القيّم / ١٧.

Semantics of linguistic Pattermsin the opening Surah

Lect.D.r.Ashwaak Muhmeed Ismaiell.

Abstract

The paper which is entitled (The semantic of Linguistic system in surat al fatiha) deals with essential element structures of the sound،morphological ،syntactic ، semantic and pragmatic systems of surat al fatiha finding connections among these levels.

The paper has concluded that high vibration sounds such as (n ،m) has more frequent uses than law vibration sounds ،also subordination has dominated in syntactic structure depending on coherence and cohesion among verses.

The repetition systems also has been used for various purposes such as giving full meaning ،decorating its rhythm and showing controversial relations between events and verses of surah ،all these repetition surat al fatiha since its afrequent start in all the bowing of the prayers.